المشرق

النيازك ونجم المجوس

(للاب سبستيان رنزڤال اليسوعي)

اذا ما صعدت على سطح بيتك في ليلةٍ من ليالي الصيف الرائقة ببيروت وسرّحت النظر في الفضاء رأيت فوقك نجوماً لا عداد لها تلمع في الاعالي وامامك البحر يمتد الى الاقاصي والكواكب تنعكس في مياهه الصافية فتخالها سماء رُصّعت بالنجوم. تتأمل في ذلك المشهد المهيب فيأخذ منك الخشوع وتنصت فلا تسمع ركزاً. بل هي العوالم كلها بصوتٍ واحد تسبّح لله خالقها فتنحني رهبةً واجلالاً وتردّد مع النبيّ داود «السماوات تنطق بمجد الله» (المزمور ١٨: ١). فاذا بنجم ينفصل عن السماء ويمرّ سريعاً وفي اثره سحابة نارية. ثم يغيب في طبقات الجوّ. ولا يلبث ان يعقبه نجمٌ ثانٍ ثم ثالث ورابع...

أتلك نجوم حقيقية تهوي فجأةً من السماء ام كواكب صغيرة تلتهب دفعةً واحدة ثم تنطفئ. ام ظواهر جوية تكوّنت في اعالي هوائنا ودارت مع الارض حول الشمس ام بروق خاطفة ام ارواح طاهرة تحلّق نحو الديار العلوية كما زعم الشعراء. ام ترى انها كواكب تائهة ليس لها فلك بل تسري كما شاءت الصدفة. لا تقل يا صاح فهذا النجم الذي استلفت ابصارك يدعوك الى التأمل في عجائب المخلوقات لانه يشهد للعناية الالهية كما تشهد لها نواميس العالم البديع. والصدفة لا حقيقة لها. فالارادة الازلية التي دبّرت كل شيء منذ الخليقة لا تزال تدبّر حركة هذا النجم الذي تخاله تائهاً في السماوات

انّ هذه النجوم هي المعروفة عند العامة بالنجوم الخرّارة وقد دعاها العرب بالنيازك. ولكن ما النيزك؟ هذا السؤال يمكننا والحمد لله ان نأتي عليه بجواب مقنع لم يكن في وسع كتّاب القرن الثامن عشر. فانّ لعلماء العصر ابحاثاً خطيرة في هذه الآثار الجوية

النيازك هي اجزاء هيولية لا يتجاوز وزنها في الغالب بعض غرامات وتتركب خصوصاً من الحديد والكربون · تمرّ في الفضاء أسراباً وتدور حول الشمس كالنجوم المذنّبة على شكل اهليجي ذي سعة كبيرة فاذا ما تقاطعت هذه الخطوط الاهليجية مع فلك الارض مرّت بنا النيازك ويمكن ان يبدو لنا منها في ليلة واحدة عدد وافر

وقائل يقول كيف لا نراها في النهار ? — انما ذلك لأنها ليست نيّرة بذاتها · فضياؤها يصدر عن تحوّل حركتها الى حرارة وسرعتها حقًّا غريبة اذ تبلغ ٤٢٧٥٠ مترًا في الثانية امّا ارضنا فتنتقل بسرعة ٢٩٤٦٠ مترًا · فاذا قابلتنا النيازك كانت سرعة الصدمة في الثانية الاولى نيفًا و٧٢٠٠٠ متر · واذا جاء النيزك تابعًا لنا تناقصت السرعة إلى ١٦٥٠٠ متر فهي اذن بمعدّل ٣٠ الى ٤٠ الف متر اعني خمس او ست مئة مرةً اسرع من قطار البريد · فالاحتكاك الناتج عن هذه الصدمة يفوق كل حرارة يمكن الحصول عليها من اقوى المواقد لانه يتولّد منها حرارة تفوق ٣٠٠٠ درجة سنتيغراد فالجرم لا بدّ ان يحمى ويلتهب · فان لم يذبْ او يتحول الى بخار بسبب هذه الحرارة الشديدة امكنه ان يخرق جوّنا مارًّا بالطبقات العليا الملطّفة · ولكنه كثيرًا ما يتحوّل الى بخار ويبقى في جوّنا ويصل بطيئًا الى الحضيض على هيئة راسب · ويقدّر العلماء انه يصلنا من النيازك نحو ١٤٦ مليارًا في السنة وهذا مما يزيد شيئًا فشيئًا في جرم الارض

والنيازك تظهر في كل الازمنة اذ لا تمضي ليلة بلا نيزك لكن في بعض الليالي يظهر منها الوف «كالجراد المنتشر» على قول المثل · وذلك انما يكون فيما يقارب اليوم العاشر من آب ولاسيا الرابع عشر من تشرين الثاني فالنيازك تنقضّ من السماء مدرارة كالبَرَد المتلاحق · وفي عام ١٨٣٣ رصد الفلكيّان الاميركيّان بِلْمِر وأُلْمستِد فمدًا في مكان واحد بمدة تسع ساعات ٢٤٠,٠٠٠ نيزك · وكان قد جرى المشهد نفسه عام ١٧٩٩ كما تحقّق ذلك هُمْبُلد ثم حدث ايضًا في ١٨٦٦ ونحن في انتظاره ان يتكرر عام ١٨٩٩ · فهو اذن يتم في ٣٣ سنة · وقد بحث الفلكيون عن السبب واثبتوا ان هذا السرب يتبع في الفضاء فلك النجم المذنّب الذي ظهر في ١٨٦٦ · فهذا المذنّب يبتعد عنّا ويسير نحو فلك اورانوس الذي مسافتهُ من الارض ٧١٠ ملايين فرسخ ثم يعود الى قرب الشمس مرة في كل ٣٣ سنة · وقد تسقط النيازك بلا انتظار كما جرى عام ١٨٨٢

ويمكن ان نعتبر النيازك كبقايا النجوم المذنّبة وفي الواقع يظهر ان المذنّبة لا

تدوم طويلًا لو قابلناها بغيرها من الاجرام الفلكية. فهي تبقى فقط بعض الوف من السنين على حين ان غيرها كالشمس او المشتري مثلًا مضى على وجودها ما لا يحدّ من الدهر. فالمذنّبات تذوب رويدًا رويدًا وتستحيل بخارًا وفتاتًا يتألّف منهُ نيازك تواصل حركتها حول الشمس في نفس الافلاك التي جرت عليها تلك المذنّبات

ولكن لا يصحّ القول ان كل النيازك هي بقايا نجوم مذنّبة ولا يخفى انه ما عدا النيازك يوجد ايضًا اجرام تدعى كرات ناريّة او حجارة جويّة وهي موادّ عاليّة اضخم من ان تذوب في الهواء قبل الوصول الينا فتبدو لاعيننا مثل كراتٍ ملتهبة تنفجر في الغالب وتنقسم الى اجزاء عديدة

فهذه الآثار الجوية التي حسبوها بادئ بدء انواعًا مختلفة ودعوها باسماء متنوعة مرجعها كلها الى اصل واحد. فالفضاء يخترقه في كل وجهة هذه الاجزاء العالمية المتفاوتة الجرم التي تلتقي بها الارض في دورانها. فهي اذن غبرة عوالم تجمعها الارض اذ تجذبها اليها (١

فنجمل القول اذن ان الجرم اذا بقي في اعالي الهواء فهو النيزك او الشهاب (étoile filante). واذا كان اقرب فهو الكرة النارية (bolide) تتفرقع او لم يتفرقع. وان سقط على الحضيض فهو حجر جوّي (aérolithe) والعرب يدعونهُ رُجُمًا

ويمكن احيانًا لارضنا ان تجذب النيزك فنحصل على قطع منه وغنمها. فهذا الامر حقيقي ثابت وان لم يخطر لخلق ببال. منذ اعوام قليلة كاد رجلٌ من الجزائر يقتله نيزك سقط بالقرب منه وقت الظهر. فظنّ المسكين انه هالك لا محالة. وقد اخبر عن الحادث قال

---

١) فغبرة العوالم هذه على راي العلماء يمكن صدورها إمّا عن الارض نفسها وامّا عن الشمس او غيرها من النجوم. فلو اطلقنا من الارض مثلًا قذيفة قوّتها الدافعة تفوق ١١٢٠٠ متر فهذه القذيفة لا تعود تقع ابد الدهر بل تبقى سائرة في الفضاء الى ان تجذبها اليها كرة اخرى. انما اذا كانت قوّة القذيفة الدافعة ما بين ١١٢٠٠ و ٨٠٠٠ فالحساب ينبئنا انها تتبع في الفضاء خطًّا اهليلجيًا متطاولاً جدًّا يقضي في اجتيازه الوفًا من السنين. والحالة هذه قد كانت البراكين في طور ارضنا الثالث ذات قوة شديدة وافية بهذه الشروط. ويؤيد ذلك ان بعض الحجارة الجويّة تشبه مادّتها مادّةَ بعض طبقات ارضنا — فالشمس لا تنفكّ عاملة ويمكنها ان ترسل الينا قذائف. ويكفي لذلك ان تتجاوز قوتها الدافعة ٤٣٠٠٠٠ متر. ولما كانت النجوم شموسًا فهي ايضًا تفعل فعل الشمس

« سمعت طاقة كطاقة مدفع ثم دويًا في الهواء . فالتفتُّ الى ما فوق فرأيت ما يشبه الغيم القاتم ثم شيئًا اسود ينقض على راسي فاذا بجرم سقط بالقرب مني واثار الغبار . فركضت اليه فوجدته حجرًا كبيرًا غار اكثره في الارض . ولما حاولت اخراجه احترقت يدي لانه كان لم يزل حاميًا » فبادر حينئذٍ كثيرون ولما برد الحجر احتملوه »

فالذي جرى في الجزائر يحدث منذ الوف من السنين فلا تمضي سنة الّا يُرى حجر قد سقط من العلاء . والمتاحف العلمية في اوربا تحتوي على الربوات منها (١

قد كان زمن انكر فيه الناس سقوط الحجارة من السماء . وعلماء القرن السابق كانوا يسخرون بالمؤرخين الذين اوردوا مثل هذه الحوادث الغريبة مع انها عديدة . وقد ذكروا هم ايضًا الحجر الساقط في اغوس بوتاموس يوم مولد سقراط (٤٧٠ ق.م.) فكان ضِعف حجر الرحى ولم يكن قد تحوّل الى بخار عند سقوطه بل بقي على حاله قطعة واحدة (٢

وذكر مؤرخو رومة ايضًا ان السماء امطرت حجارة على جبل البا (Alba) في عهد تولوس هستيليوس (٣ . وفي غلاطية بمدينة بَسِينونت كانوا يعبدون الالاهة سيبال (Cybèle) تحت شكل حجر نازل من السماء . وفي حمص بسوريا كانوا اتخذوا حجرًا مثله لعبادة الشمس . وحجر الصاعقة المتين واللامع الذي صُنع منه حسام عنتر كان ايضًا نازلاً من السماء كما روى الرواة (٤ . وفي بُرُوكُوب كلام عن سقوط غبار اسود كثيف في نواحي القسطنطينية عام ٤٧٢ . ويزيد الراوي على ذلك ان « السماء ظهرت كانها تحترق » . والفلكي الشهير غَسَّنْدي روى مع التفاصيل انه في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٦٣٦ رأوا حجرًا ملتهبًا سقط على احد جبال بروفنس يبلغ وزنه بعد ان برد ٢٦

---

١) قد اسهبت جرائد اوربا القول في الرجم الذي سقط منذ ستين (١٠ شباط سنة ١٨٩٦) في مدريد في ضُحى النهار وسُمع لهُ دويٌّ عظيم في تلك العاصمة ثمَّ عقبهُ شبهُ سحاب محمرّ . اما الرجم فتكسّر وجُمع منهُ قطع كثيرة اكبرها لدى ملكة اسبانيا

٢) والفيلسوف اناكساغور الذي كان في تلك الايام زعم بعد هذا الحادث ان السماء من حجر

٣) ثالث ملوك رومية (٦٧١-٦٤١ ق م)

٤) وذكر مؤرخو اليونان انهُ يُرى شيءٌ من هذه الحجارة في جزيرة العرب فاتّخذوها في الجاهليّة للعبادة

كيلوغراماً وقد اصبح صلداً اسود

وقد توالت مثل هذه الحوادث حتى ان كيلوياً انكليزياً هورد (Howard) سردها مع ترتيب الازمان في قائمة أتمّها من بعده العالم الطبيعي الالماني اخلادني (Chladni) . وهذه القائمة تبتدئ من ١٤٧٨ قبل المسيح وتنتهي الى ١٧٩٤ بعده ومع ذلك فلم يأنف علماء القرن الثامن عشر في ان يقولوا ان هذه الاخبار كلها حوادث ملفّقة

ولم تنجلِ الحقيقة الّا عام ١٨٠٣ فانه بفضل العالم بيوت (Biot) أدّى البحث الذي امر به مجمع العلماء الفرنسي الى تقرير مسألة سقوط الحجارة تقريرًا لا اعتراض عليه

وان سأل سائل ما كان يدفع علماء القرن الثامن عشر لانكار هذا الحادث فالسبب واضح وهو انّ العلم الفاسد حاول ان ينقض كلام الله . لان نصّ الكتاب المقدس جاء مؤيدًا صحة كل ما قدّمنا من الادلّة قال : « وفيما هم (الاموريّون) منهزمون من وجه اسرائيل وهم في منهبط بيت حورون رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء الى عزيقة فهلكوا وكان الذين هلكوا بحجارة البَرَد اكثر من الذين قتلهم بنو اسرائيل بالسيف (يشوع ١٠ : ١١) » . فقضى فلاسفة القرن السابق الموهومون ببطلان هذا القول لكنّ العلم الحديث بيّن فساد هذه المزاعم الفرّارة اذ من المقرر انّ العلم الحقيقي لا يخالف قط كلامه تعالى بل يطابقه دائماً

وكأني الآن بالقارئ يسألني : يا ترى هل نحن عرضة لأن تسحقنا هذه الرجم يوماً ما . فاقول ليس الامر بمستحيل كما يتتج مما تقدم لكن علينا ان نعتبر بان هذه الآثار ليست دائماً كبيرة الجرم وانها اذا كانت صادرة عن تجزُّؤ نجم مذنَّب كما هو في الغالب كثيرًا ما تصير غبارًا ثم تستحيل بخارًا في جوّنا فلا تُلحق بارضنا اذى . وعلى كل فجميع هذه الاجرام تعمل بنواميس وضعها لها من قال : لا يهلك شعرة من رؤوسكم الّا بسماح من ابيكم السماوي (لوقا ص ٢١ ع ١٨) . وهٰذا يعود بنا الى قولنا الاول : لا حقيقة للصدفة ولا يمكن ان يكون لها وجود . فالنجم الذي رايتهُ ينفصل عن السماء ويمر سريعاً ويغيب في طبقات الأثير يخضع لامر الخالق منذ الخليقة الى دهر الدهور

تلك هي نتائج أحببنا ان نخصّها ايها القارئ من هذا البحث عن النيازك والكرات الناريّة والحجارة الجوّيّة

لكنك تسألني قائلًا : متى تتكلّم عن النجم الذي ظهر للمجوس وإخالُك تشبّهُ

بالنيازك كما يُستدلُّ من عنوان هذه المقالة

نعم ايها القارئ اللبيب هلمَّ نبحث عن نجم المجوس وقبل الحكم في حقيقتهِ لنذكر ما جاء عنهُ في الكتاب الكريم. قال القديس متى (٢:٢) ...٥. انّا رأينا نجمهُ في المشرق فوافينا لنسجد لهُ... ذهبوا واذا النجم الذي رأوهُ في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق المكان الذي كان فيهِ الصبيّ». فظهور نجم المجوس انما هو امرٌ لا محالة عجيب يُعدّ من اعظم خوارق الطبيعة ولذلك كان سبق الله وجعلهُ آيةً لمجيء المسيح (سفر العدد ٢٤:١٧). ولكن ما يجدر بالملاحظة انَّ وجود مثل هذا الاثر لا يَنفيهِ العلم الصحيح ولا يستغربهُ الفلكيُّون المحدثون اذ تراهم لا يزالون يذكرون سَيْر النجوم ومختلف حركاتها العجيبة ويسهبون الكلام في الحوادث الجوّيّة كالآثار النيّرة والشُّهُب اللامعة والنيازك والنجوم المتساقطة

وكان علماء القرن الثامن عشر يقولون من المحال الافتراض بان النجوم في حال بُعدها تدلّ على بلدٍ ومدينةٍ فكم بالاحرى على بيت. فضلًا عن ان النجم لو انحطَّ لغطَّى جرمهُ العظيم ليس فقط بيت لحم بل اليهوديّة بل الارض كلها. وكانوا يستنتجون من ذلك ان نجم المجوس محض اختلاق

فعلماء ذلك العصر كما سبق القول لم يكونوا يعتقدون بالحجارة الجوّيّة والاجرام الملتهبة في السماء. وكانوا يملأون النفس انهم بذلك يغالطون العهد القديم والعهد الجديد. فلو صنع الله معجزةً واقامهم من الموت كي يراجعوا ما كتبوهُ لذابوا خجلًا وارعووا عن آرائهم الفاسدة وتروَّوا مليًا قبل الاقدام على مغالطة الكتاب المقدَّس

ولقائل ان يقول أتُعدُّ اذًا نجم المجوس نيزكًا؟ نجيب انهُ ليس بامرٍ سهل ان نبيّن حقيقة جوهر هذا النجم اذ ليس لدينا وصفٌ مدقّق لطبيعتهِ العجيبة. وقد اختلفت فيهِ الآراء منذ ابتداء النصرانيّة حتى ايامنا. وللآباء القديسين واللاهوتيين كاغناطيوس الانطاكي واوريجانس ويوحنا فم الذهب وباسيليوس وامبروسيوس وسُوارس وكورنيلوس الحجري وللفلكيين مثل كبلر الشهير آراء مختلفة مرجعها الى ثلاثة مهمّة (١: الاول ان نجم المجوس كان اثرًا خصوصيًا احدثهُ الله يشبه نجمًا اقترب من الارض —

١) نضرب صفحًا عن ذكر العلماء القليلين الذين ارتأوا ان النجم انما كان ملاكًا او الروح القدس الذي ظهر فيما بعد على المسيح بشكل حمامة...الخ وهي آراء ضعيفة لا يقبل بها العقل

والرأي الثاني انهُ كان نجماً مذنَّباً او نيزكاً — والثالث انهُ كان نجماً عاديًا . فالرأي الاول انصارهُ كثيرون . امَّا الرأيان الاخيران فيعترضهما مشكل عظيم وهو وقوف النجم ومن المعلوم انَّهُ لا الثوابت ولا السيَّارات ولا المذنَّبات ولا النيازك هي ساكنة مستقرة في الاعالي . بيد انَّ النيزك كما سبق هو اثر سريع الالتهاب وشيك المرور فترجح الرأي الاوَّل اي انَّ هذا النجم حادث عجيب اظهرهُ الله بخلاف سُنن الطبيعة دلالة على تأنُّس ابن الله (١

ولك ايها القارئ اللبيب ان تتبع ما استحسنت من هذه الآراء . انما لا تنسَ امرًا ذا شأن وهو ان نجم المجوس ليس فيهِ ما يناقض العلم . كيف تمَّ الحادث ؟ ذلك امر عويص لا نعلمهُ الآن وربَّما لن نعلمهُ ابدًا رغمًا عن تقدُّم العلوم الفلكيَّة . ولكن ما لا يخامرنا فيهِ ريب هو انَّ الجبار صنع ذلك لانهُ هو الواضع لكل الطبيعة ونواميسها والقادر على تحويرها كما يشاء وكما تقتضيهِ حكمتهُ الازلية . وهنا نجاهر باسم العلم الصحيح ضد العلم الفاسد الذي يحاول حصر العمل الالهي ضمن دائرة حرجة بل يُريد نفيهُ من العالم . فكم من ناعق : المعجزة لا وجود لها لان نواميس الطبيعة لا تزول ولا تتغيَّر . كانَّما الشريعة وُجدت قبل المشترع والخليقة قبل الخالق . ألَا فلنُصغِ الى كلام نيوتن العظيم وبهِ نختم مقالتنا فانَّهُ يقول في رسالتهِ الى الدكتور بنتلر « انهُ في انتظام حركة السيَّارات واقمارها وفي وجهتها ومواضعها ودرجة سرعتها اثرُ حكمة وشاهدُ عامل لا اعمى ولا اتفاقيّ بل عارف حق المعرفة بعلم الحيل وجرّ الاثقال (mécanique) والهندسة . فلا يخامرنا اذًا ريبٌ في صحة هذه القضيَّة ومن المُحال الافتراض بان القضاء المُطلَق يدير شؤون العالم . لان القضاء الاعمى هو هو في كل مكان ولا يمكنهُ ان يُحدث هذا التنوُّع الذي نشاهدهُ . فلم الفلك لا يخطو خطوة الَّا رأى حدًّا للاسباب الطبيعيَّة وبدا لهُ من ثمَّ اثرُ العمل الالهي . فمن المقرَّر اذن ان حركات السيَّارات الحاليَّة لا تنتج فقط عن قوَّة الجاذبيَّة العامَّة . ولكي تشرع في حركة الدوران حول الشمس لا بُدَّ لها من يد الهيَّة تدفعها على خط مماس دوائر افلاكها » . تلك هي اقوال مسيحي عظيم كان ايضًا فلكيًّا ساميًا فتأمَّل

---

١) ومن اراد البراهين على ان نجم المجوس كان باعجوبة فليراجع اعداد البشير الثلاثة من ٢١ تشرين الثاني الى ٤ ك ١ سنة ١٨٨٤

الاخ (فرا) غريفون وجبل لبنان

في القرن الخامس عشر

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما سبق)

٥

فقبل ان نتبع الاخ غريفون في تفاصيل رسالته علينا ان نلمّ ايضاحاً لما يأتي بوصف حالة لبنان في اواسط القرن الخامس عشر

لم تكن الطائفة المارونية بلغت في تلك الايام شأواً بلغته من بعد . فكان معظم ابنائها يسكنون شمالي لبنان من جهات الارز وكانوا في قضاءَي جبيل والبترون بين المتاولة (١ والتركمان (٢ وابنيتهم الى الجنوب لا تكاد تتعدى نهر ابرهيم (٣ والنازحون منهم قد جعلوا وجهتهم رودس وقبرس حيثما عمَّروا تحت لواء لوزينيان ثلاثين قرية وقصبة . بيد انَّ الموارنة كانوا من ذلك الحين يُعدُّون شعباً كبيراً في الاقطار السورية . فقد روى غليوم رئيس اساقفة صور انَّ اربعين الفاً من الموارنة دخلوا انطاكية سنة ١١٨٢ (٤ . وفي القرن الرابع عشر وصف لُودُلف دي سُوخم لبنان « بجبل غطَّاه كثير من القرى والقصبات الآهلة كلها بسكانٍ مسيحيين لا يحصى لهم عدد » (٥

وكان يسوس الموارنة في الروحيات بطريرك كرسيُّهُ وتتنقل في قنُّوبين (٦ ولهُ من المطارنة اساقفة كثيرون . ولمَّا وصل غريفون الى لبنان كان الجالس على السدة

---

١) كان المتاولة مقيمين في المُنَيطرة

٢) راجع اخبار الاعيان وجه ٣٤٦

٣) ذكر الشيروني انهُ في ايَّامهِ اي في القرن السابع عشر كان الموارنة قد اخذوا يمدون في كسروان وقد ملأوا فيه قصبة غزير الواسعة (Evoplia Fidei, 91)

٤) Historia belli Sacri l. XXII, c. 8. – وكذلك جاك دي فتري يذكرهم كأُمَّة كثيرة العدد

٥) De Itinere Hierosolymitano وهو كتابٌ قديمٌ ونادر في مكتبة رويانا بفينَّا . لا أعداد لصفحاتهِ وليس فيه تاريخ وما ذُكر مكان طبعهِ

٦) منذ ١٤٣٩ : الدويهي وجه ١٣٥

البطريركية يعقوب الحدثي(١ الذي دامت رئاسته نيفًا واثنتي عشرة سنة. قام بعده بطرس ابن يوسف ابن يعقوب الملقّب بابن الحسّان وهو ايضًا من الحدث

واما في الامور الزمنية فكان لكلّ قضاء والٍ او امير يلقّب بالمقدّم. وهذا المنصب وراثيّ ولكن غير مستقلّ عن امراء الشراكسة والماليك في مصر. لانهم طالما تعرضوا لشؤون لبنان الداخلية. والقلقشندي الكاتب المصري المتوفى سنة ١٤١٨ يذكر في لواحق نيابة طرابلس « ولايات جبّة المنيطرة (٢ وجبّة بشرّيه (٣ وجبّة أنفة (٤ »

وفي تواريخ الموارنة ذكر لمقدّمي بشرّي والبترون وجبيل والعاقورة الخ. ويظهر ان مقدّم بشرّي كان لهُ منذ القرن الخامس عشر الاسبقية على الآخرين فيحكم كامير على لبنان(٥. امّا من جهة اللغة فبقيت اللغة السريانية في بعض الاماكن من شمالي لبنان وزاحمتها العربية التي بدأت تمتدّ في كل الجبل. ولكن في الكتابة لم تزل تُستعمل الاحرف السريانية دون سواها حتى في كتابة العربية (٦. ولمّا كان غريفون متضلّعًا في كلتا اللغتين تمكّن من مباشرة العمل دون ابطاء. واول ما استلفت انظارهُ مسألة الطقوس والاحتفالات الكنائسية

٦

وعلى ما روى كاتب فرنسيسكاني (٧ في ذاك العصر وقد استعار عبارات الكردينال

---

١) توفي سنة ١٤٥٨

٢) وفي كتابه منيطرة وهو تصحيف

٣) قال « والجاري على الالسنة بشرّاي »

٤) على شاطئ البحر في جنوبي طرابلس – راجع القلقشندي وجه ١١٧٧ و ١٢٣٨ وكتابهُ مخطوط في مكتبة كليتنا

٥) الدويهي ٢٧٩

٦) جاك دي فيتري Historia Hierosolymitana I, ch. 77, apud Bongars – وروى بولس لوقاس (١ : ٢١٦) ان في كثير من القرى المجاورة للارز كانوا يتكلمون بالسريانية في القرن السابع عشر – والفرنسيسكاني اوجين روجه في كتابهِ « الاراضي المقدسة ٧١ » يورد نفس الشيء. ومثلهما دي لاروك في ترجمة حياة المسيو شاستويل وجه ٦٠ وروى نيرون (Evoplia, 89) انه في بشرّي وثلاثة قرى مجاورة كانت السريانية يتكلم بها حتى النساء. ويخبر كثيرون من هؤلاء المؤلفين انّما كانت سريانية ممزوجة بالعربية

٧) هذا الكاتب اسمهُ م غلاسبرغر لا يحمل في ما نقله عن جاك دي فيتري الّا تتمة القول

جاك دي فتري « ان الموارنة امة كثيرة العدد تسكن جبل لبنان في جهات بيبلوس (جبيل) رجالها يتسلحون بالقسي والنبال ولهم خبرة بشؤون الحرب . وهم وحدهم بين الشرقيين يحافظون على عوائد اللاتين ولاسيما في الفروض ومنح الاسرار ويخضعون لرومية كل الخضوع . ولما كان مطارنة المشرق لا يعرفون الخاتم ولا التاج ولا العكاز ويقرعون عوض الاجراس بعصا او بمطرقة على خشبة ليدعوا المؤمنين الى الصلاة فالموارنة دليلًا على خضوعهم اتخذوا هذه العوائد كلها » (١

فالموارنة كما يتضح ذلك كانوا من قبل المجمع اللبناني المشهور بقرون كثيرة يسعون في التقرب ما امكن من رومية في الطقوس الكنسية . وابتدأ هذا التقرب من زمن الصليبيين

وهاك ما قال في هذا الصدد كاتب ماروني واقف حق الوقوف على تاريخ طائفته (٢ « ان ما اتصف به بطاركة طائفتنا المغبوطين من شدة الغيرة على ازدياد أُلفتهم في الاتحاد مع الكنيسة الرومانية امّ جميع الكنائس ومعلّمتهن كان يحملهم على الابتعاد عن عوائد كثيرة طقسية وان كانت في نفسها مستحسنة رغبةً في التقرب من الكرسي الرسولي . ولا يخفى على من له إلمام بتاريخ عاداتنا القديمة وما نمارسهُ اليوم ان هذا الابتعاد قد ابتدأ عندنا منذ عهد رجوع بطريركنا ارميا العمشيتي من رومية عام ١٢١٥ . فانّ اكليروسنا من ذلك الوقت اخذ يلبس الثياب والحلل الموافقة لثياب وحلل اللاتين ويجتهد في التقرب من الكنيسة الرومانية في كل شيء . »

ورغمًا عن حبّ التقرّب هذا كانت لم تزل الفروق الطقسية كثيرة ولم تبرح الكنيسة المارونية في القرن الخامس عشر محافظة على عوائد شرقية محضة . فكان الكهنة مثلًا يباركون زيت العماد ويدهنون المؤمنين بالميرون بعد عمادهم (٣ . وكذلك يُعطى القربان الطاهر للصغار حالاً بعد الاعتماد . وفي مدة الصوم الكبير كان يتام يوميًا قداس

بشيشة واحدة في المسيح . ونظنّ ان الاهال عن تمدد لانّ غلانبرغر كاد يعاصر لغريفون وامكنه ان يستشير رفقاءه في رسالته فلم يُجزْ لنفسهِ ايراد تلك التهمة

١) لودولف دي سوخم الزائر عام ١٣٣٦ كان ابدى هذه الملاحظات نفسها وقال ايضًا انهُ رأى مطارنة لاتين يقومون لسيامة اساقفة الموارنة « Eorum episcopos ab archiepiscopis latinis vidi consecrari »

٢) رشيد افندي شرتوني في مقدمة « منارة الاقداس » ص ٧

٣) الصفحة ٨

البروجزمانات اي ما سبق تكريسهُ (Προηγιασμένα) كما عند الروم. وما زال الموارنة حتى اواخر القرن السادس عشر يتناولون القربان تحت الشكلين (١

ولمّا كان المرسل الفرنسيسكاني بصيرًا بالامور واسع العقل أيّد ما امكنهُ رأي المحافظة على الطقوس القديمة ودافع لدى الكرسي الرسولي عن هذا المبدإ حتى نال الموارنة ان يحفظوا « كثيرًا من العوائد الخاصّة بالكنيسة الشرقية » (٢

واجتهد غريفون كما روت سجلّات رهبانيتهِ في تشييد كنائس جديدة بلبنان. وكان قد بُني في ايّام الصليبيين عددٌ منها لم يزل بعضها حتى عصرنا. قال المسيو ري « ان الموارنة كان لهم النصيب الوافر من تقدّم الفنون بسوريا في تلك الازمنة. فكنائس حاطوم وميفوق وحلتا وشبطين وبجديدة ومعاد وكوره وسمار جبيل وكنيسة مار تقلا في جبيل بُنيت على نسق يجمع بين الهندسة السورية والبزنطيّة. وذلك موضوع بحث مفيد لمن اعتنى بدرس الآثار السوريّة في القرون المتوسطة بلبنان. فكنائس إدّه وبجديدة وكفر سايان وتاروس تحتوي نقوشًا سوريّة تستلفت الابصار ولم تزل سالمة. ومن درسها يمكن كما قال المسيو رنان الحصول على كمال تاريخ الفنّ البزنطي » (٣

ولم يكتفِ غريفون بتشييد المعابد بل اصلح الخلل في امور شتّى (٤ ولا يسعنا الاّ التعبير بلفظة خلل عمّا وصفهُ الكتّاب الفرنسيسكان. اذ لا يمكن القول بان المراد اضاليل في العقيدة لان الذين ينكرون على الموارنة ثباتهم الدائم في الكثلكة هم انفسهم يقرّون بانهم من بعد المجمع الفلورنتيني كانت تعاليمهم لا عيب فيها. فالمراد اذن الامور التهذيبية

---

١) دَنديني وجه ١٢٧ – وفيلاون يُثبت الامر نفسهُ – وفي ٦ تموز سنة ١٥٨٧ رأى ارنست فون بوسِكّ رهبان تنّوبين « يناولون القربان الطاهر بملعقة » Röhricht, 157 – وفي المؤلَّف نفسهُ وجه ٥٢ نبذة عن موارنة ألماغوسة بقبرس

٢) البراءة الاولى من لاون العاشر في ١٥١٥ الى بطريرك الموارنة في مجموعة براآت مطبوعة في القرن السادس عشر ومحفوظة في مكتبة الآباء اليسوعيين بثينا « Bibliotheca Rossiana ». وقد نشرها الدكتور هِفِله (Conciliengeschichte) زاعمًا انّها غير مطبوعة

٣) E. Rey 79, Les Colonies franques en Syrie – الدويهي ١٠٣ و ١١٢ – Renan, Mission de Phénicie, 229, 236, 240, 259.

٤) « errores ablegavit »

التي لا تعلّق لها البتة بالمعتقد او الخلل الذي يمكن وقوعه حتى بين الامم الشديدة الحرص على المبادئ الكاثوليكية

وما عدا ذلك فقد كان في لبنان اماكن يسكنها اليعاقبة . فالادريسي يذكر من هذا القبيل ثغر جونية (١ . والدويهي ينبئنا عن وجود كثيرين من اليعاقبة في بلاد الموارنة يبذلون الوسع في نشر اضاليلهم . وربما عنى بذلك الكتب والتعاليم التي كان يسعون بثها بين المؤمنين . ومما ساعدهم أنّ اللغة والطقوس واحدة فتوفرت من ثمّ اسباب الاختلاط التي كثيرًا ما اضرّت بصحة العقيدة كما يشير الى ذلك المؤرخون الموارنة (٢

٧

وعلى كلّ مهما كانت اسباب هذه الشوائب الاعتقادية او التهذيبية فان مساعي غريفون في استئصالها تكللت بالنجاح . فتمكن من اعادة الدين الى جمال رونقه عند شعب جمع في كل حين بين التقوى واخلاصه للكثلكة

ولم تخلُ هذه الاصلاحات من المقاومة . فانّ بعض الموارنة وهم نزرٌ يسير عدّوا غيرة المرسل في غير حينها . لكنّ معارضتهم لم يقم لها قائمة لولا معاضدة احد المقدَّمين الذي لم يذكر الكتّاب اسمهُ . فلا يمكن القول انه عبد المنعم بن سيفا بن يعقوب (١٤٦٩) ولا ابن اخيه ورزق الله بن جمال الدين بن سيفا خلفه وكلاهما شديد التعلّق بالدين الكاثوليكي . ولعل المراد هو عبد المنعم ايوب ابن اخي رزق الله المذكور لانه كان من اعظم انصار اليعاقبة . نعم انهُ لم يتولَّ الامر الاّ عام ١٤٧٢ بيد انه كان نافذ الكلمة في عهد عمّه ولم يصبر الى حين موته ليجاهر بأميالهِ (٣

وقد روى المؤرخون الفرنسيسكان ظهور معجزة عن يد غريفون نوردها على علاتها فكأنها تمّت لتأييد اعماله . قيل كان هذا المرسل الغيور يعظ المؤمنين في الكنيسة وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فاذا بالواعظ يُري الحاضرين الاشعّة داخلةً الى الكنيسة من الشرق . وزاد المؤرخون انّ الموارنة اخذوا من ثمّ يحتفلون في مثل ذلك اليوم اي عيد انتقال العذراء او عيد السيدة بتذكار هذه المعجزة

١) فلسطين وسوريا للادريسي . وجه ١٧ من النصّ العربي (ed. Gildemeister)

٢) الدويهي ١٢٩ — دنديني ١٢٧ — السمعاني يورد الانباء عينها

٣) راجع الدويهي ١٤٠ و١٤١ و ٤١١

لقد اسعدنا الدهر ان نشهد هذا العيد اعواماً بين الموارنة ولم نسمع من يذكر ذلك الامر العجيب. والعلّامة الدويهي يقول انه لا صحة لظهور هذه الاعجوبة بل هي اقاصيص عجائز

ذلك كلامٌ لا يقبل ابهاماً. فضلًا عن انَّ اثبات المعجزات يقتضي المحص والتدقيق والبراهين الدامغة. وعلى كلٍّ فتلك الرواية تدلّنا على مكانة غريفون ومقامهِ الرفيع في عين معاصريهِ. لان ذكر الغرائب والمعجزات يلحق بالرجال الممتازين كما يتبع الظلّ الاجرامَ التي انصبَّ عليها نور الشمس

٨

ولم تكن اعمال المرسل الفرنسيسكاني في سبيل الموارنة لتستغرق همتهُ بل كان ايضاً يُعنى بشؤون الروم المستوطنين في شمالي لبنان

فلمّا وصل الى سوريَّة كان الجالس على كرسي انطاكية للروم دُورُوثاوس فهذا الحبر المتقلّب بعد ان اظهر بواسطة وكيلهِ ايزيدور مطران كياف قبولهُ بالمجمع الفلورنتيني جاهر بمعارضتهِ للاتحاد برومة. ووافق الجميع نشاطاً في عقد المجلس الاورشليمي الذي حرَّم المجمع الفلورنتيني. وما اكتفى بهذا بل جاء القسطنطينية عام ١٤٥٠ واتفق مع زميلَيهِ الاورشليمي والاسكندري وعقد جلسة في كنيسة اغيا صوفيا جدَّدوا فيها حرم كل ما تقرَّر في فلورنسا وعزلوا غريغوريوس خلف البطريرك متروفانوس الذي اشتهروا بميلهِ الى الاتحاد. وصاحب مختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين الكاثوليكيين المطبوع في بيروت ١٨٨٤ (١ يذكر دوروثاوس في عدد البطاركة الكاثوليك لاسباب نجهلها وكنّا احببنا لو اوردها

ومات دوروثاوس سنة ١٤٥٤ فخلفهُ ميخائيل ثمَّ يواكيم ومرقس. وهذا الاخير مات في ١٤٧٦ (٢ وكلهم ابدوا التساهل بل اميالًا كاثوليكية. ولا ريب ان غريفون استفاد من هذه الاميال ويسوغ ان ننسب الى مساعيه ارسال موسى رئيس شمامسة انطاكية (من أسرة جبلّة الكريمة ذات النسب الفرنجي الشرقي) العالم بآداب اللغتين اليونانية والسريانية (٣

١) وجه ١٤ يدعوه دوسيطانوس ودوروثاوس. وليس الاسم الاوّل من الاسماء اليونانية
٢) وصاحب المختصر يذكر بعد ميخائيل ثاودوروس ويواكيم
٣) يظهر من هذا انَّ الروم الملكيين كانوا في تلك الايام لا يزالون يدرسون السريانية

الذي جاء رومة في اوائل ١٤٦٠ (١ باسم بطاركة اورشليم وانطاكية واسكندرية حاملاً رسائل قبولهم بالمجمع الفلورنتيني. فقابلهُ البابا بيوس الثاني مقابلة سرّية وعلنية وفي ٢١ نيسان من السنة عينها اصدر نشرةً في هذا المسعى الجديد نحو الاتحاد (٢. واشتبه المؤرخون في صدق هذا المسعى فضلاً عن انهُ لم يأتِ بثمرة

ولسوء الطالع ان المؤرخين اهتمّوا برسالته لدى الموارنة ففاتهم ان يوردوا لنا التفاصيل عن رسالته بين الروم الملكيين بسوريا. وعلى الكل انها لم تجد سوى اهتداء افراد لانَّ الحركة العظيمة نحو الاتحاد لم تبتدئ الّا في القرن السابع عشر كما لا يخفى

الطاولات الدائرة

(ردٌّ على جريدة البنانة للاب لويس شيخو اليسوعي)

انهُ لمن العجب العجاب انَّ ماكسدت سوقهُ وبارت سلعتهُ بين عُقّال الغربيين تراهُ بعد حين وَلّى عنهم الأدبار فاجتاز البحار ورسا في سواحلنا ونشا في اصقاعنا نشوء الادواء المعدية فلا يلبث ان يأخذ بعقول الشرقيين وهم لا يدرون انَّ لفي الدَّسم سمّاً ومع العسل شرّاً

ومثال ذلك «الطاولات الدائرة» التي كثر فيها القال والقيل في الغرب قبل خمسين سنة فلمّا لم يرَ الاجانب في مزاولتها خيرًا او بالحري آنسوا من يراسها شرًّا نبذوها عنهم غير مأسوفين عليها اللهمَّ الّا الجهّال منهم وبئس الجاهل للعاقل إماماً

ذلك وقد كان في املنا ان يُصبح ذكر الطاولات المتحركة نسياً منسياً اذ سمعنا منذ

أمَّا ما يختصّ بشأن أسرة جبلَة (Giblet) فراجع ريَ Rey «الأسرات فيما وراء البحر» ٣١٦ – ٣٣٦. وآخر هذه العائلة التي استقرَّت في قبرس بعد الصليبيّين مات فيها سنة ١٤٨٨. ولم يمكنني ان اثبّت ان كان بقي بسوريا احدٌ من هذه الأسرة في زمن غريفون

١) وليس في سنة ١٤٦٣ وكان البابا المالك وقتئذٍ بيوس الثاني لا الثالث كما جاء في مختصر تاريخ الروم الملكيين وجه ١٧

٢) الاوراق المتعلقة بهذه المسألة محفوظة بين سجلّات الفاتيكان السرّية في الخزانة الرابعة

بضعة سنين ان هذه الملاهي الخطرة تسربت في الديار المصرية فاصابت عند البعض حظوة والحقت بهم نوعاً من الهوس وربما خاضت الجرائد الحلية في هذه الابحاث فخبطت فيها وخلطت هداها الله الى سبل الرشاد

ومن هذا القبيل نبذة انشأها احد الكتّاب فنشرتها جريدة حديثة اسمها البنانة في عددها السادس عشر وعنوان المقالة « الطاولة المتحركة » امضاها محرّرها باول حروف اسمه (ي) وقد استهلّ فيها بما نصّهُ :

« انّ من الملاهي المفكهة في الاجتماعات العائلية الطاولة التي تدور على نفسها ودورتها هذه من الامور الطبيعية لا من الشعوذة وقد شاهدتها مراراً وامتحنتها بنفسي مع بعض الاصحاب ولا يقتصر في هذه اللهوة على جعل الطاولة تدور وتتحرك يميناً وشمالاً حسب الارادة بل هي تتكلم ايضاً وتجاوب على ما يُعرض عليها من الاسئلة ومن البديهي انّ جوابها ليس بالنطق بل بحركة احدى قوائمها التي تشير بالضرب بها الى حروف الهجا... »

ثمَّ جعل الكاتب يقصّ على القرّاء ما اجراهُ من الامتحان مع بعض اصحابهِ فروى انّ كليهما مسك قلمهُ وتناوب اخذ الجواب بالكتابة فكان القلم يخطّ على الورق دون سعي منهما واردف ذلك بقولهِ : « وغدت هذه اللهوة من الملاهي الاعتيادية في فرنسا وانكلترا واميركا ... امّا السرّ في المسألة فلم يدركهُ الى الآن احد وقد ذهب البعض الى انّ اسبابها طبيعية وقال آخرون انها من الامور الغير الاعتيادية . وادّعى قوم انّ بين البشر والارواح علاقة تظهر بواسطة الطاولة . وكلّ ما قيل في هذا الشأن لايتجاوز حدّ التخمين »

واستطرد بعدئذٍ الكاتب في مقالتهِ الى ذكر تاريخ الطاولات المتحركة فروى قصة جان فوكس الاميركاني اخبر عنهُ أنهُ سمع في احدى ليالي سنة ١٨٤٨ طرقاً على سقف غرفتهِ ودام ذلك عدة ايام الى ان فهمهُ الطارق ان هذهِ الضربات اصطلاحية يُستدلّ بها على معنى . فاخذت من ثمَّ تنتشر لهوة الطاولة المتحركة . وختم الكاتب مقالتهُ بقولهِ انهُ يوجد الآن كثيرون في اوربا واميركا ممن بنوا على هذه الحادثة ديناً ... وانهُ قابل قوماً منهم وجدهم شديدي الاعتقاد بهذه الامور ولهم كتب دينية مخصوصة منها شبه انجيل ومنها صلوات الخ

هذا مجمل المقالة التي احبّت البنانة ان تتحف بها قرّاءها تفكيهاً للارواح . والحقّ

يقال انَّ العجب اخذ منَّا مأخذهُ لدى مطالعتنا هذه القطعة في جريدة تونسنا الخير في اعدداها الاولى واستغربنا انها سمحت (سامحها الله) لبعض مكاتبيها ان يخوض في مسألة ملتبسة مثل هذه فتقضي عنها دون تردد وجزم بانَّ الحوادث الظاهرة بواسطة هذه الطاولات انّما هي امور طبيعيّة بحتة

على رسلك ايها الكاتب الاديب كيف امكنك ان تفتي قاضياً بانَّ دوران هذه الطاولات المتحركة من الامور الطبيعيّة ؟

ولا ارضى بمفنّد لزعمك غيرك وقد قلتَ في اثناء مقالتك « انَّ هذا (يريد حركة الطاولة) سرٌّ لم يدركهُ الى الآن احد . . . وانَّ كلَّ ما قيل في هذا الشأن لا يتجاوز حدَّ التخمين » . ألا ترى حفظك الله وهداك الى الصواب انَّ بين قولك هذا والقول الاوَّل بوناً شاسعاً بل تناقضاً ظاهرًا . فان كان الامر سرًّا لم يدركهُ احد فكيف تحكم انت دون تردّد بانهُ طبيعي ؟

ثمَّ ان كانت مسألة الطاولات المتحركة من الحوادث الطبيعيّة كما ارتأيت فكيف اجزت رأيك بان تنسب اصلها الى قصّة جان فوكس الذي لم يرتشد الى استعمالها بوسيلة طبيعيّة وقد ذكرت انَّهُ سمع في داره طرقاتٍ متناوبة في ليالٍ متوالية دون ان يكتشف لها سبباً وبقي على ذلك مدَّة الى ان افهمهُ المحرك المجهول انَّ هذه الضربات اصطلاحيّة يُستدلّ بها على معانٍ معلومة . افتعدّ كلَّ هذه الظروف من الامور الطبيعيّة ؟

وعلاوة على ذلك قد قلت « ان كثيرين عقدوا على هذه الحادثة ديناً . . . » فلو لم يكن في امر الطاولات المتحركة شيءٌ خارق الطبيعة افتظنُّ ان تكون شيعة كبيرة تمكّنت ان تبني لها ديناً استنادًا الى حادثة طبيعيّة محضة . هذا وانَّ الاكتشافات الطبيعيّة قد تعدّدت في زماننا وكلّها تقضي منّا العجب أفرأيت مع ذلك انَّهُ نشأ منهما دين او نحلة جديدة ؟ أتعرف مثلاً قوماً اتّخذوا اختراعات الكهرباء الغريبة مبدأً لدينهم ؟

وحسبنا حجّةً لنقض قول الخصم انَّ ذوق البشر وعقلهم السليم يبيّن لهم صريحاً انَّ جمادًا لا حسَّ لهُ ولا نطق مثل الخشب الذي منهُ تُركّب الطاولات لا يمكنهُ الحراك من تلقاء نفسه فضلاً عن النطق . فكيف يتسنّى للناس كما تزعم ان يلقوا عليه اسئلة ويأخذون منهُ جواباً لو لم يكن وراء ذلك ما يتجاوز حدود الطبيعة ؟

فكأني بكاتب البنانة ألجيء ان يتصدّى لي معترضاً بقولهِ : ألم ترضَ بان امر

الطاولات المتحركة طبيعيّ فلا يبقى لك الّا احد امرين او يكون شعوذة او معجزة من المعجزات

اقول انهُ لما اشتهر في اميركا وأوربا شأن الطاولات الدائرة اخذ كثير من العلماء يُعنَون بشرح اسباب هذه الحركات الغير الاعتياديّة التي كانت تلوح بادئ بدء عند وضع الايدي عليها. فنسب البعض هذا الدوران الى سيّال شبيه بالكهرباء ينشأ من مسام الاجسام الحيّة وينبعث منها فيفعل في الطاولة ويحرّكها

ولكن ما لبث السواد الاعظم من العلماء ان ردُّوا على هذه المزاعم . أجل انهم لم ينكروا وجود الكهرباء والقوّة المغناطيسيّة في الانسان والحيوان وكثيرًا ما بحثوا في مفاعيلها الطبيعيّة ولكنهم استنكفوا من نسبة هذه المفعولات الخارقة العادة الى هذين العاملين ولا تراهم في كتبهم العلمية يبحثون في امر الطاولات وتحريكها بالارادة او استفتائها في الاسئلة وغوامض الامور فانَّهم يجلُّون العلم عن هذه المباحث ونعمًا يصنعون. لاسيَّما وقد ظهرت حركات هذه الطاولات اطوارًا عديدة دون سبب ظاهر كوضع الايادي وغير ذلك. وهب أنَّنا سلّمنا بوجود مثل هذا السيَّال المجهول فانَّ قوَّتهُ الطبيعيّة غاية ما تبلغ اليهِ ان تحرّك الطاولة بعض الحركات. ولكن كيف يمكن لهذا السيَّال بان يتصرَّف بحركاتها كيفما شاء وينال منها الانسان طرَقاتٍ معلومة على مقتضى اسئلتهِ وارادتهِ الحرَّة ؟

أفنقول اذن ان امر الطاولات شعْبذة ؟ لا نُنكر ان للتلاعب والخزعبلات مجالًا كبيرًا في حركة الطاولات وكثيرًا ما رأينا اناسًا يحكمون الصُنع فيخلبون عقول الناظرين بحذاقتهم وخفَّة ايديهم . ولكن قد جرى عدَّة امور غريبة شهدها قومٌ من ذوي الخبرة والفطنة فاتخذوا كلَّ الوسائل لصدّ الشعوذة والملاعبات فقضوا انَّهُ حدث في الطاولات من الظواهر والآثار ما لا يمكن نسبتهُ الى اسباب طبيعيَّة او تلاعب يعبث بهِ المشعذون أيُعدُّ اذن في عداد الخوارق ؟

اجبنا انَّ الخوارق على صنفين منها ما يخرق عادةَ الطبيعة البشريَّة ليس الّا وهو الصنف الأدنى يُطلَق عليهِ اسم الاعجوبة. ومنها ما يفوق طاقةَ كلّ طبيعة مخلوقة وهو الصنف الاعلى يدعى بالمعجزة ويختصّ بهِ تعالى عزَّ وجلَّ

فما نراهُ من المفاعيل الغريبة في الطاولات المتحركة كالاجوبة على السؤالات لا يمكن نسبتهُ الى الله لانَّهُ تبارك اسمهُ لا يتعدَّى سُنَن الطبيعة الّا اذا وُجد لذلك باعث اهلٌ

بجلاله كما هو مجده عزَّ وجلَّ او خير اوليائه او سبب آخر مناسب لكمالاته تعالى . ومن المحال ان تُعزى هذه المناولات الى الملائكة لانَّ الملاك مطبوع على الامتثال لاوامره عزَّ وجلَّ لا يتعدَّاها في ذرَّة . فلا يبقى الَّا ان ننسب هذه المآثر للارواح الخبيثة ولابي الكذب الشيطان خزاه الله

وان كان الامر كذلك فلا يحلّ للنصرانيّ بل لايّ رجل كان ان يزاول هذه الاختبارات الخطِرة . لانَّ غاية ما يرومهُ عدوّ البشر (ردَّ الله كيدهُ في نحرهِ) ان يغوي الانسان فيسومهُ خسفًا . ولهُ خزاهُ الله في كلّ زمانٍ تسويلات بها يزيّن الشرّ لبني آدم وقصارى مبتغاهُ ان يصيبهم بضرر في نفسهم او جسدهم او كليهما معًا . وقد ابتكر في هذا العصر وقانا الله من شرّهِ مكيدة الطاولات المتحركة ليرتبق الانسان في حبالتهِ . ويشهد تاريخ السنين التي بها فشا هذا الوباء في الغرب انَّهُ تعدَّدت وتنذر الآثام وكثرت الجرائم واستشرى الفساد وزادت الانتحارات زيادةً مهولة بين الذين كانوا يعانون هذه الملاعب الشيطانية

ولذلك ما لبث الاحبار الرومانيون والرؤساء الروحيون الذين اقامهم المسيح لصيانة الايمان والآداب ان حظَّروا على المؤمنين هذه الالعاب وهدَّدوا بالحرم وبقيّة العقابات الكنسيّة الذين لا يذعنون لاوامرهم . وجدَّدوا هذه التنبيهات مرارًا فلم يبقَ للشكّ مجال وحقّ الامتثالُ

وعليهِ لم نكُ لترضى لمكاتب البنانة ان يبعث القرَّاء على عصيان اوامر البيعة فيضلّهم عن سواء السبيل . وساء صنعهُ اذ نبَّه الافكار الى هذه الالعاب وجعلها من جملة الملاهي ولم يأنف ان يقصّ على رؤوس الملإ مزاولتهُ لهذه اللهوة مع اصحابهِ كأنَّهُ يحبّب بذلك اليهم الصنيع ليقتدوا بمثلهِ وبئس المثل . وهنا يحسن بنا ان نذكر كلمة قالها احد آباء الكنيسة وهو القديس بطرس الذهبيّ المقال: انَّ مَن احبَّ ان يلاعب ابليس الرجيم لا نصيب لهُ في افراح ملكوت المسيح

وفي الختام نسأل الله الَّا يفتن الشيطان اهل بلادنا بشُبَهِهِ ويستفزَّهم بغروره فيتهوَّروا في ظُلَم المعاصي ويضلُّوا في بيداء البهتان

الانتقاد

(للشاب الاديب نجيب افندي حيقة مدرّس البيان في كليتنا)

الانتقاد باب ولجهُ كثيرون فذهبوا فيه مذاهب شتّى . منهم مَن افرطوا في ذمّ الاعمــال واستهجان الموائد حتى نفرت عن اقوالهم القلوب . ومنهم من تعرَّضوا لشخصيّات وسبُّوا فافحشوا . ومنهم . . ومنهم . . وفريق مدحوا (والمدح داخل في حكم الانتقاد) وتجاوزوا الحدود حتّى أبرموا القرَّاء. فعاد كلامهم عليهم وعلى ممدوحهم ذمًّا وشتيمة . تناهوا وما دروا ان التناهي غلط . وان خير الامور الوسط . والحقّ يقال انَّهُ لم تخلُ بلادنا ممَّن انتقدوا واعتدلوا فاجادوا وجنى الناس ممَّا كتبوا لذَّة وفائدة . لكنَّ امثالهم قليلون فضلًا عن انهم ما بدأوا حتى انتهوا . كالبرق اومض واحتجب . نشروا بعض مقالات ثمَّ امسكوا . كانهم شفوا غليلًا فاكتفوا او بلغوا مرامًا فارتضوا او حالت دون غايتهم موانع فتوقّفوا

ولمَّا رايت سوق المدح راجت ايَّ رواج حدَّثتني النفس في الانتقاد المفيد غير المبتذل . فلم انكف من ولوج بابهِ على ضيقهِ وسلوك سبيلهِ على وعورتهِ . وقد آليت على نفسي التعريض بالصفات دون الذوات والطعن في العوائد الذميمة لا اخصّ من اصحابها زيدًا ام عمرًا . جامعًا بين الجدّ والهزل موردًا الامثال كما اقتضى المقام ذاكرًا على قدر المستطاع «ما ينقصنا» . واوَّل من اتعرَّض لهم ارباب الاقلام لانهم ملح العالم في الآداب والعلوم

تلك خطرات افكار ابثّها كلّما سنحت وسمح الوقت بل هي سهام ارشقها تِباعًا عن كبد القوس في كل وجهة . فمن طاش عنهُ السهم طابت نفسهُ ووجد وسيلةً للتفكّه والمزاح . ومن أهدفوا لهُ فليصبروا على مُضَض البلوى من غير شكوى او فليكفروا في سرّهم عمّا جرى وليعتبروا . وربما كنت انا منهم وعاد كيدي في نحري فلومي على نفسي . انها كانت امّارة بالسوء

ما ينقصنا

تشيل السراج

ما اكثر المطابع في عصرنا زادنا المنّان منها ووفّق اصحابها لخدمة الحقّ والفضيلة .

بل قلّ ما اكثر الكتّاب . اعزّ الله المجيدين منهم . فانهُ والحمد لله تفتخر بلادنا بكرام نفضوا عن اللغة غبار الايام وشيّدوا فيها للعلم بيتاً عالي المنار . فريقٌ تحلّى باقوالهم نحر الجرائد واشرق بانوار معارفهم وجه المجلّات . وفريق اودعوا الكتب كنوزاً لا يعادلها ثمن . فعادت مساعيهم خيراً على ابناء جنسهم . بيد انهم نزرٌ يسير أيدهم الله وكلّل بالنجاح اعمالهم وحفظنا من شرّ سواهم

وما ادراك مَن سواهم . هم قومٌ نزلوا بشرف الكتابة الى حضيض الهوان . وبذلوا ماء وجه العربية وهو أولى بان يصان . شوّهوا صفحات الجرائد وافسدوا بطون الكتب . قالوا فما افادوا وكتبوا فلم يُفهَم لهم معنًى وجمجموا فلم يُرَ لهم طِحن . ولم يعرفوا ايّ خطّة ينهجون فباتوا في دياجي الظلام يتسكعون . وان فُتح لهم الطريق لم يدروا كيف يسلكون . قد ركبوا في غير صهوتهم وخاضوا مضماراً ليسوا من رجاله طمعاً في احراز قصب السبق سا . ما يتوهّمون . فجنوا على انفسهم واهدفوا للنبال غيرَ مدّرعين وحبّذا خمول الذكر في تلك الحال وحبّذا الخفاء وراء الحجاب . وجنوا على الكتّاب المجيدين فكانوا كالسحاب الخلّب منعوا المستضيئين عن انوار ذوي العلم الصحيح وضنّوا عياء بقطرة تروي الغليل . وجنوا على القرّاء فاستنزفوا اموالهم واوقاتهم وراحتهم وعوّضوهم منها سأمة ونفوراً حتى قالوا : افٍّ للعربية ما اوفر عباراتها واقلّ فائدتها وتفٍّ لرجالها ما ابعدهم عن الصواب . . .

وهكذا امثال هؤلاء المتطفّلين عرّضوا اللغة الشريفة للصّغار وساموا اهل الفضل هواناً . والعربيةُ وارباها منهم براء .

وقائلٍ يقول : كيف تتبرّأ منهم العربية وهم جماعة درسوا اللغة فاحرزوا منها نصيباً وافراً ووقفوا على مكنوناتها فلا تخفاهم منها خافية ولهم في كل فنّ علمٌ وخبرة . وليس منهم الّا من لهُ اليد الطولى في نظم القصائد . . . فما ينقصهم ؟

على رسلك ايها المعترض واسمع على سبيل التفكّه حكاية لصاحب الامثال فلوريان

القرد والفانوس السحريّ (١

كان لرجلٍ يتعيّش من الفانوس السحريّ قرد قبيح وكان هذا لا تفوتهُ فرصةٌ

---

١) لا يخفى ان الفانوس السحري آلةٌ لها ثلاثة اركان : زجاجات عليها رسوم وصور . وعدسة مكبّرة . وسراج يضيء . وهو الاهمّ . فيأخذ الرجل الزجاجات ويمرّها تباعاً بين العدسة

للاحتذاء بصاحبه في حركاته وسكناته . فدعا الحيوانات ذات يوم ووعدهم بمشهد جديد بهيج فكان يصيح : هيّا سادتي . الدخول مجاناً . كلّ ذلك ابذله في سبيل الشرف (والجميع يتفانون في سبيل الشرف !!!) . فتقاطر المدعوّون افواجاً . ولمّا استقرّ بهم الجلوس واُغلقت النوافذ اخذ يلقي خطاباً كان قد اعدّه لتلك السهرة واسهب في الكلام حتى تثاءب كلّ الحضور ومع ذلك قابلوه بتصدية الايدي ايذاناً بالاستحسان (وكم من خطيب مثله وكم مثلهم مستحسنين) . فسرّ القرد بما ناله من الفوز ثمّ اخذ يعرض الصوَر واحدة فواحدة ويشفع الحركة بشروح وافية : انظروا سادتي الى الشمس واشعّتها الساطعة . . . هاك القمر يشق جلباب الدجى . . . هذا مشهد الخليقة البديع . . . هنا ابو البشر آدم وهناك حوّاء . . . انظروا الى الحيوانات واقرأوا تاريخهم المسطر . . . انظروا . . . انظروا

هذا والحاضرون في ظلام دامس . يحملقون ولا يبصرون . فقال المرء : ليت شعري يسرد لنا عجائب لكنّي لا اجد لها اثراً . وكذلك قال غيره همساً . وبعضهم هتف : لا يفوتني من هذه المشاهد واحد . لكني لست ادري ما بي فلا اميّز شيئاً (حفظهُ الله وامثالهُ)

كلّ ذلك والخطيب يصف ويشرح لا يعتريه مَلَل ولا فتور . وما فاتهُ الّا « تشعيل السراج » . . .

انّ مَن ذكرتُهم من الكتّاب يتشبهون بالكرام ولكن لا يفلحون . توفّرت لديهم المَعدات ولكن فاتهم الأهمّ . فاتهم النور . وايّ نور ? أالعقل ? ألذكاء ? كلّا ثمّ كلّا فالسوريّ امتاز دون سواه بالذكاء والنباهة وسعة العقل . فما ينقصهم اذن ? حقّ المعرفة والعلم الوافي بما فيه يبحثون . فلا يغنيهم توفّر المواد وعيثاً تتوارد عليهم الافكار والصوَر وتنصاع لهم التعابير الأنيقة . فان لم يكن المرء على بيّنة واضحة من الغاية التي يتحرّاها وقد جلّت لهُ كلّ الجلاء ابوابها وطرقها اصبح يخبط خبط عشواء فلا هو يهتدي ولا الناس تدرك لهُ خبراً او تفهم لهُ معنًى . يُجهد القرّاء انفسَهم فلا يجدون سوى عبارات لا طائل تحتها ولا يلوح من خلالها الّا ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض . فويحاً لحالة هذا الكاتب المسكين . ضلّ سعيهُ ولم يجد وصفهُ وشرحهُ نفعاً لانهُ فاتهُ « تشعيل السراج »

(ستأتي البقية)

والسراج فيبدو شكلها كبيراً على ستار من النسيج المبلول . فيبهج بمنظره العين

الجُدَريّ

(مقالة للدكتور هنري نكر احد المدرّسين في مكتبنا الطبي)

لقد وفدت هذه العلّة الشنعاء من بضعة اسابيع وضربت اطنابها بين ظهرانينا فطارت لها النفوس شعاعاً. فاقتضت الحال ان نفرد لها مقالة مسهبة نصف فيها كيفية سريان العدوى في الامراض الوبائية. وأول ما يتبادر الى الذهن هذه الاسئلة: ما اصل الجُدَريّ؟ وما هي حقيقتهُ؟ وكيف السبيل الى دفع غوائلهِ؟

١ً اصل الجُدَريّ وخباثتهُ

انهُ لقد خفيَ عن الناس معرفة اصل الجُدَريّ ولو وقفوا عليهِ لزادوا في تاريخ الامراض فصلاً مهماً. ولكن ليس لديهم ما يستندون اليهِ في البحث والاستقصاء عنه. وهو قديم العهد في الصين والعجم والهند امّا الاوربيون فلم يشعروا بهِ في بلادهم الّا في القرن الخامس او السادس. وليس وضعهم لهذا الوباء دقيقاً وافياً وانّما استنتج العلماء ذلك من بعض علامات اشار الكتّاب اليها لا يصحّ نسبتها الّا الى الجدري

والرازي (١ اوّل من ألّف في الجدري كتاباً بقي زمناً طويلاً الكتاب الوحيد في هذا الموضوع وفيهِ وصف محكم لهذا الداء.

وما كنّا في مقالتنا هذه لنشير الخاوف والاوهام التي تستولي على العقول في زمن العلّة الوافدة بل نجتزئ بذكر ما يهمّ العموم عن الجدري وآفاته

اوّلاً اذا ما هجم هذا الوباء للمرّة الاولى على بلدٍ فتك في السكان فتكاً ذريعاً (كما حدث في هايتي احدى جزائر الانتيل سنة ١٥٠٧ وفي المكسيك سنة ١٥١٨ حيث افنى نصف الاهلين). والحصبة والقرمزيّة هما على هذا النمط ايضاً. ولا غرو فانّ السمّ المرَضي يسهل انتشاره في المكان الجديد اذ لا يجد فيه ما يقاومهُ ويكسر شوكتهُ. امّا اذا كان متوطّناً فيه من عهدٍ بعيد فهو خفيف الوطأة. والسرّ في ذلك أنه لا يندر ان يكون احد اجداد

---

١) ابو بكر محمّد بن زكريا الرازي. كانت وفاته سنة ٣٢٠ هـ (٩٢٣م). وكتابهُ في الجدريّ والحصبة الّفهُ في القرن التاسع للمسيح وقد طُبع سنة ١٨٧٢ بمطبعة الاميركان في بيروت

الجدور قد أصيب بالجدري فتنتقل القوة العاصمة منه بالارث الى ذريته ولو ضعفت بالتناسل. ذلك رأي يسلّم به العقل وإن لم تكن قررته مباحث العلماء

ثانياً ان الجدري يهجم دفعةً فدفعةً يفصل بينهما عدد من السنين . وهاك السبب : من الناس من يُصابون بالعلة الوافدة فيصبحون بعد الشفاء متمتعين بالقوة العاصمة . ومنهم من يتلافون امرها ويبادرون الى التطعيم فلا تلبث العلة ان يتقاص ظلّها ثم تزول

ولكنَّ الايام تمرّ والناس تتعاقب والقوّة العاصمة تضعف مع الزمان ويُهمل الجمهور امرَ التطعيم لتناسيهم اخبار الجدري . فاذا وجدت الجراثيم حالاً موافقة لها ثارت عن كثب وانتشرت وعمّ الوباء

والجدري يصيب المرء في كل سنّ . وكثيرًا ما نرى في زماننا الحميّات النفاطيّة (كالحصبة والقرمزيّة) تضرّ بالاطفال بينا انّ الجدري يُبقي عليهم لان التطعيم بعد مولدهم يدفع عنهم شرَّهُ

٢ً في سير الجدري وعلاماته وحقيقته

ليس من يجهل سير الجدريّ عادةً . فاول اطواره طور الحضانة من ١٠ الى ١٢ يومًا . وبعدها يعتري العليل ضنك وإعياء في كل جسمه وصُداع وثقل في الرأس ووجع شديد في الظهر وغثيان وقُياء . تلك اعراض اذا انضمّت اليها الحمّى لم تُبقِ ريبًا في هجوم العلة الوافدة . وبعد مضيّ يومين على هذه الحال يبتدئ طور النفاط ولا يتجاوز في الغالب يومين

والجدري اسماء تختلف باختلاف كثرة النفاط او قلّته . فمنه المتجمّع او المتّصل ومنه المتفرّق او المنفرد . واذا كان سليمًا جدًّا فلا تتجاوز بثوره ٥٠ او ١٠٠ سمّي بالحُماق امّا النزفي او الاسود (المعروف عند العامّة بالحبشيّ) فهو عبارة عن فساد في الاجهزة عظيم حتى ان الدم يخرج من الاوردة ويصل تحت الجلد . فيمكن القول ان الحُماق يُشفى منه دائمًا . والمتجمّع والمتفرّق غالب الاحيان . والنزفي لا شفاء منه البتّة

ومتى ظهر النفاط سقطت الحمّى . واوّل ظهوره على شكل حُبوب صغيرة يقال للواحدة منها ذُبابة او غلة ثم تصير حُوَيصلة ثم بثرة وهي مقعّرة الأ في وجهها . امّا الحمّى التي هجعت فلا تلبث نحو اليوم الثامن ان تعود بسبب تقيّح البثور . لكنها اخفّ منها

في الاول . فتنفجر البثور ويخرج منها الصديد على الجلد وهذه الحال تورث الانسان منظرًا سيئًا وغيظًا . ثم يجفّ الصديد فيتكوَّن منه الجال او القشر وهذا طور التَّقشُّر ومعه يبتدئ النَّقَه . وفي الجدري يتعافى العليل اسرع منه في الحمَّى التيفوسيَّة مثلًا ويعود الى مزاولة اشغاله . ولمَّا كانت الجال لا تنقلع الَّا بعد حين بات المجدور ينشر الجراثيم اينما سار وذلك من عظم الاسباب لتفشّي الوباء . فانَّ الجال تحتوي على كمّيّة وافرة من جراثيم الوباء واذا ما انقلعت تناثرت كالغبار وحملها الهواء الى جميع الجهات فاذا علقت بجسم قابل للعدوى بطشت به

٣ كيف السبيل للوقاية من الجُدَري

من المرجَّح ان البشر اهتمُّوا من قديم الزمان بايجاد الدواء لمثل هذا الوباء الهائل . فاذا تأمَّلنا انهُ فتك بالالوف منهم فاسكنهم القبور وانَّ الكثيرين ممَّن عفا عن حياتهم شوَّه خِلقتهم وذهب ببصرهم (١ ادركنا انَّ رجال الطبّ جعلوا شُغلهم الشاغل ايجاد طريقة واقية او شافية

واوَّل ما راقبوه ان الجدريَّ لا يراجع . والثاني انهُ يوجد منهُ ما عدا النوع الشديد نوع خفيف يورث هو ايضًا القوَّة العاصمة للمستقبل . فلم يبقَ لهم من ثمَّ غير خطوة للوصول الى قضيَّة التلقيح . والصينيُّون قد عالجوا زمنًا مديدًا نَقْلَ الجدريّ . فكانوا يجمعون باعتناء جِبال النوع السليم منهُ ويجعلونها مسحوقًا يضعونهُ في أنف من يُريدون تلقيحهُ . فلا يمضي ٨ او ١٠ ايام الَّا ظهر الجدريّ الحقيقي وسار سيرهُ الطبيعي . ولكن لسوء الطالع كان ينتج احيانًا عن لقاح النوع السليم نغاط النوع المتجمّع او التزفيّ . وهكذا كان يفقد الحياة او سلامة الاعضاء مَن طَمِع في الحصول على القوَّة العاصمة . ومع ذلك فان التلقيح كانت سوقهُ رائجة . ولا ريب ان الوباء كان شديد الوطأة عليهم حتى كانوا يُقدمون على مثل هذا العمل الخطِر

فبعد ما اكتشف الدكتور جِنِر (Jenner) التطعيم لم يبقَ للتلقيح من اثر . فانَّ التطعيم وإن كثر الجدال فيهِ عند ظهوره لم يلبث ان عمَّ استعماله وما كانت نتائجهُ العظيمة في ايَّامنا الَّا لتزيدهُ وتزيدهُ انتشارًا . ومرجع الفضل الى باستور وتلاميذهِ في هذه

١) اذا اشتدَّ النِغاط ربما نجم عنهُ تقرُّح القرنيَّة المؤدّي الى تلف العين

الاكتشافات الخطيرة واكثرها حديثة . ولا ريبَ أن القرّاء الكرام يُسرُّون بالوقوف عليها على سبيل الإجمال

من المعلوم ان اكثر الامراض مسبَّبة عن آليَّات نباتيَّة (ميكروب) من الطبقة السفلى والميكروبات لايكاد يخلو منها مكان . فقد عدُّوا منها في قلاح (وعند العامَّة كخة) اسنان بعض اشخاص حائزين على تمام الصحَّة ما يربو على ١٥ نوعاً من تدرُّنيَّة ودفثيريَّة ورئويَّة الخ . وافواهنا رغماً عن كل ما نبذلهُ في سبيل النظافة اضحت مجتمعاً للميكروب . فكيف اذن لا نُبلى اكثر الناس بذات الرئة او التدرُّن او الدفثيريا او بجميعها معاً ؟ ذلك سؤالٌ صرَّح بالجواب عليهِ من بضع سنوات العالِم مِتْشْنيكوف الروسي . فبيَّن انهُ اذا التقى الميكروب بكُرَيَّات الدم البيضاء (١ احدقت هذه بهِ وابتلعتهُ ثم هضمتهُ على نوع ما . فمتى قامت الكُرَيَّات حقَّ القيام بوظيفتها ولم يكثر عليها عدد الميكروب سلم الرجل او هلك العدوّ تباعاً عند دخوله ولم يلحق بالاجهزة اذًى . ولكن متى قصَّرت الكُرَيَّات او هجم عددٌ وافر من الميكروب فاز بالغلبة واستقلَّ بالمكان وتزايد بسرعةٍ وسبَّب المرض . فابتلاع الكُرَيَّات للميكروب وهضمها لهُ حركةٌ تدعى فاغوسيتوز (phagocytose)(٢ . وفي بعض الامراض كالكزاز او التيتانوس والدفثيريا مثلاً يبقى الميكروب موضعيّاً في نقطةٍ لا يتحوَّل عنها ولا يختلط بالدم (هذه النقطة هي غشاء الحنجرة الكاذب للدفثيريا وسطح القروح فكزاز) . ومع ذلك نرى المرض يظهر بجميع اعراض تسمُّم عامّ في كل الاجهزة . والسبب لذلك انَّ الميكروب وإن لم يتحوَّل عن مكانهِ فهو يفرز موادَّ سامَّة جدّاً تسري مع الدم في دورته وتحمل السمَّ الى كلّ اطراف الجسم . وهذه المواد تسمَّى تُركسين (toxine) وهي شديدة الخطر لاسيَّما وانها بقابليتها الزائدة للاختمار تنمو في الاجهزة ايَّ نموّ ومفعولها كمفعول الخميرة في العجين . وكفى بالنزر القليل منها ليأتي بالنتائج الوخيمة . نعم انَّ مثل هذا التقرير قلَّما يسرّنا فكأنَّهُ يُثبت لنا أن كل مَن دخل جسمَهُ مقدارٌ من هذه المواد ولو زهيدًا جدّاً هالكٌ لا محالة . والحمد لله ان ما نمتحنهُ يوميًّا يثبتُ

١) نذكّر القرَّاء ان الدم يتركَّب من مائع (مصل) فيهِ موادّ لطيفة جامدة (كُرَيَّات حمراء وبيضاء) ففي كلّ ملّمتر مربَّع من الدم ترى خمسة ملايين من الكُرَيَّات الحمراء بمقابلة خمسة آلاف من البيضاء . وكلامنا هنا على البيضاء

٢) هي كلمة مركَّبة من لفظتين يونانيَّتين معناهما ابتلاع الكُرَيَّات (للميكروب)

لنا خلاف ما نتوهّم. ودونك السبب عن ذلك :

ان الكريّات لا تكتفي بابتلاع ما تصادفهُ من الميكروب بل انها لكي تدفع اذى المواد السامّة تفرز هي ايضاً ترياقاً يسمّى أنطيتُوكسين (antitoxine) له من القابلية للاختبار ما للمواد السامّة وفاعليته عظيمة لابطال مفعولها وكسر شوكتها . فالحرب عوانٌ بين الفريقين . فمن جهة الكريّات البيضاء وترياق ومن الاخرى الميكروب والمواد السامّة . فكما انهُ يمكن للميكروب ان يتغلّب على الكريّات كذلك يمكن للمواد السامّة ان تقوى على الترياق اذا سرى منها في الجسم كمية كافية لأن توقع في الاجهزة خللاً قبل ان يُفرز الترياق اللازم . وتلك مسألة مبنية على السرعة اكثر منها على الكمية . لانّ الترياق عجيب فقطرة من مصل حيوان مطعّم ضد الكزاز كافية لتقي من الكُزاز اكثر من عشرة الاف مليار رجل . ومما ترجح عند العلماء ولم يتقرر بعدُ ان الكمية القليلة من المواد السامّة تهيّج في الكريّات البيضاء فعلاً شديداً لمناقضة السم وابطاله . وان الكمية الكثيرة بخلاف ذلك تضعف هذه الكريّات وتلاشيها على نوعٍ ما (١

ولا بدّ من القول ايضاً ان الاطبّاء استعملوا لتلطيف قوّة بعض الميكروب والمواد السامّة وسائل عديدة كالكهرباء والحرارة الخ . فتلك المواد اذا ما عالجوها بهذه العوامل الطبيعية امكن حقن الحيوان بها من غير خطرٍ ولولا التلطيف لهلك لا محالة

فيسهل الآن ادراك الطريقة الى استخراج انواع المصل . فلو اردتَ مثلاً المصل ضدّ الدفتيريا حقنت حصاناً بسمّ الدفتيريا الملطّف فلا يلبث ان ينتشر هذا السمّ في اجهزة الحيوان ويهيّج فيها إفراز الترياق . ثم تحقنهُ ثانية بسمّ اقوى فيقبلهُ جسمهُ لما قد تكوّن فيه من الترياق . وهكذا تكرّر الحقن مراراً بسمٍ اقوى فاقوى لكنهُ لا يعمل بالجسم لانّ الترياق ايضاً يزداد قوّة . فينتج حينئذٍ من توالي الحقن ان يكتسب مصل ذلك الحصان خواصّ ترياقية تنمو بازاء السمّ الدفتيري

فاذا أُصيب طفل بالدفتيريا وخيف على حياته من الهلاك . فما علينا وقتئذٍ سوى حقنهِ بذلك المصل الذي اعددناه فيقاوم الترياقُ السمَّ الدفتيري ويُرجى للطفل الشفاء . ولكن ان سرى السم في الاجهزة قبل الحقن صحّ القول انّ السيف سبق العذل ولات حين رجاء

١) ان الانتيتكسين وانواع الترياقات اذا ما دخلت في الجسم لا تلبث ان تختلط بالبول فتفقد قوّتها العاصمة وتتلاشى

وكلّ ما ذكرناه يكشف لنا الحجاب عن حقيقة القوّة العاصمة في كثير من الامراض . فالحمّى التيفوسية والحصبة والقرمزيّة والجُدَري لا تراجع بسبب الترياق المقابل لها الذي يتكوّن في الاجهزة . وذلك لانهُ يبقى مدى حياة الانسان في جسمه جزء من الترياق كافٍ لصيانته من الوباء او لأنّ الكُرَيّات البيضاء متى تهيّجت مرة للافراز لم تنقطع عن العمل مدى الحياة او لأنهُ بعد زوال كل اثر للترياق تبقى في الكُرَيّات قابليّة لتفرز بسرعة كمّية منهُ وافية لاوّل هجوم السمّ

وسائل يقول : هل يوجد لكلّ سمّ ترياق خاص به يعاكسهُ ؟ لا لعمري . ولنا على ذلك برهان قريب في مطعوم الدكتور جِنّر وعليه الآن مدار كلامنا . ومع ذلك فالابحاث في هذه المسألة متواصلة ولم نزل حتى الآن نجهل نتيجتها

انّ كلّ ما ذكرناه كان لا غنى عنه لندرك فعل مطعوم جِنّر حقّ الادراك فهذا المطعوم عبارة عن جرثوم وبائي . وهو يختلف كل الاختلاف عن لقاح الجدري حتى ان مطعوم جِنّر لم يسبّب قطّ الجدريّ . ولقاح الجدريّ لم يورث التطعيم . انّما الامر الذي لا شبهة فيه هو ان مطعوم جِنّر ولقاح الجُدَريّ يورثان معًا القوّة العاصمة من الجُدَريّ والتطعيم ويقيان منهما . فاقتضى الامر اذن لدفع شرّهما ان يكون كلٌّ منهما افرز ترياقًا مضادًا لكليهما معًا

لكن يا ترى هل تدوم القوّة العاصمة التي اكتسبناها من الجدري السليم او من التطعيم ؟ نقول وفقًا للقاعدة العامّة ان الجدريّ يورث قوّة تدوم مدى الحياة . امّا التطعيم فقوّتهُ لا تتجاوز من ١٥ الى ٢٠ سنة بيد اننا لا نقرّر ثبوت فاعليّتها بصورة قطعية . وكثيرًا ما أُصيب بالجدري اولادٌ بعد ٤ او ٦ اعوام وكان تطعيمهم مع ذلك حسنًا لكنّ الجدريّ حينئذٍ سليم جدًّا وهو لَحاق كما مرّ بل انحراف صحّة لا مرض

فكلّ ما تقدّم يثبت لنا ان مطعوم جِنّر عاد بالفوائد العظيمة على المجتمع البشري ولذا سعت الامم في تعميم استعماله . فانّ التطعيم واجب في بعض البلاد وفي بعضها اختياري . ولكن لا يباح لاحد ان ينتظم في سلك مناصب الحكومة الّا اذا حمل شهادة ناطقة بتطعيمه . ولا ريب انهُ بانتشار المعارف بين الجموع يقلّ عدد المتهاملين في هذا الامر وتعمّ عادة التطعيم المحمودة

وقد يُخال لاوّل وهلة انّ الشريعة القاضية بوجوب التطعيم هي مجحفة بحرّيّة

الأفراد. وليس الامر كذلك لانَّ الرجل لا يعيش وحده منفردا فمن الممكن ان مرضه يعدي امثاله الموجود بينهم. فيحق اذن للمجمع الانساني ان يتَّخذ الوسائل دفعاً لويلات الوباء.

فضلًا عن ان التطعيم لا ينتج عنهُ ادنى محذور. نعم لو كان يُنقَل المطعوم من ذراع الى آخر لقايل انهُ يخشى انتقال ما في الاول من الامراض الى الثاني بهذه الواسطة ولكن لا سبيل الى العدوى اذا جرى هذا التلقيح على قواعده. بيد ان الحكمة تقضي بنبذ ما كان خطره ممكناً

والطريقة الى دفع كل محذور هي باتخاذ المطعوم البقري. فانهُ قد عمَّ استعمالهُ في ايامنا بل كاد لا يُستعمل غيره. اوَّلًا لانهُ اذا استُعمل لا بأس من سريان العدوى من شخص الى آخر. ثانياً لسهولة الحصول على الكمية المطلوبة منهُ في كل آن. اما التلقيح من ذراع الى آخر فيستحيل اتقاؤه متى اقتضى أن يُعالَج به في العالم الوفُ في وقتٍ معاً

ولا يسعنا في هذا المقام الآن ندفع ما استولى على الجماهير من الوهم ان التطعيم في زمن العلة الوافرة يعرّض المرء لقبول الجُدَري. ذلك ضلالٌ وخيم العاقبة يقضي ببطلانه كلُّ ما كشفه لنا العلم. وليس لنا الَّا ان نستند على ما تقدم من التفاصيل عن فعل جراثيم المرض وتولُّد الترياق فنأتي من ثمَّ بالبرهان ذي الحدَّين في حالي التطعيم او عدمه فنقول :

اذا وفدت العلَّة فالرجل الذي لم يتطعَّم إمَّا يحتوي جسمه على الترياق الواقي من الوباء وإمَّا لا يحتوي. فان كان الاول فنِعمَّا. وإن كان الثاني (ولا يدري احدٌ بحقيقة الواقع) فتكت به العلة

وبخلاف الامر انَّ الذي تطعَّم او سرى الترياق في جسمهِ او لا. فان كان الاول. لا يفعل فيهِ المطعوم. وان كان الثاني فالتطعيم يولّد فيهِ الترياق المرغوب وهكذا يكسب راحة البال في كلا الامرين

فلا بدَّ اذن من التطعيم كيفما كانت الحال وعند الختام نقول إن الاطبَّاء اوَّل من يبادرون الى التطعيم فيلتجئون اليهِ في العلة الوافدة هم واهل بيتهم. وكفى بمثالهم عبرةً لقومٍ يعقلون

استعمال الفطير والخمير

(للاب انطون صالحاني اليسوعي)

نُشرت مؤخراً في هذه البلاد مقالة عن الخمير والفطير ضمّنها كاتبها آراء غير سديدة فرغب الينا كثيرٌ من قرائنا الكرام ان نبيّن لهم الصحيح من الفاسد والغث من السمين فلبّينا الى دعائهم وعمدنا الى وضع نبذة وجيزة في هذا المعنى قصدنا فيها اثارة للعقول رفع حجاب الالتباس عن وجه الحقيقة

ويُقتضى علينا بدء بادئ ان نميز الزمن الذي سبق انفصال اليونان عن الكنيسة الغربية (١ والزمن الذي وليَهُ ففي العشرة القرون الاولى من النصرانية لم يكد آباء الكنيسة وعلماؤها ومؤرخوها يذكرون الخمير او الفطير الّا على سبيل العرض وبوجه يُستدلّ منه انهم لم يكونوا يعلّقون على هذه القضية كبير اهمية. فلم تكن عُرفت اذ ذاك ولا وُجدت مسألة الفطير والخمير. وهذا العلّامة فوتيوس قد ضرب صفحاً عن مسألة الفطير ولم يصوّب سهام الملامة الى الكنيسة اللاتينية على استعمالها لهُ. ففي سكوته دليل على انهُ لم يكن يعتبر المسألة كما اعتبرها بعض خلفائه بعده وانه سوّغ تقديس الخمير والفطير بالسواء. فلمّا تمّ الانفصال نشأت هذه المسألة ثمَّ تفاقمت واستفحل امرها فاضحت شغلًا شاغلًا وموضوع مجادلات عنيفة حتى ان بطريرك القسطنطينية ارميا علّم وصرّح بان الخبز اذا لم يكن خميراً لا يتحوّل الى جسد الرب (٢

امّا اللاتين وان استعملوا الفطير وفضّلوه (٣ فقد علّموا وما زالوا يعلمون مع السواد

---

١) تسمية الكنيسة بغربية او شرقية لم يكن لها من اثر في القرون الاولى للنصرانية. انما احدثها انقسام المملكة الرومانية الى قسمين هما مملكة الغرب ومملكة الشرق وكان ذلك بعد وفاة ثيودوسيوس الكبير سنة ٣٩٥ ثم انتشرت هذه التسمية وتأصّلت في الكنيسة نفسها بعد ان حدث ما حدث من الاختلافات الدينية والنفور بين كنيسة القسطنطينية والكرسي الرسولي في القرن الحادي عشر

٢) راجع الفصل العاشر من تأديبات الكنيسة الشرقية ولكن ليس الجميع يقولون بهذا التعليم. فانَّ كثيراً من اليونان مع ادعائهم بان استعمال الخمير هو اقرب لعادة الكنائس الاولى لا ينكرون كون الفطير يصلح كالخمير لتتميم سرّ الافخارستية

٣) وكذلك يصنع اللوترانيون فانّهم في عشائهم السرّي يستعملون عادةً الفطير. الّا انهُ يجوز

الاعظم من الشرقيين ان الفطير والخمير هما مادة صحيحة للافخارستية على حدٍّ سواء. لان كليهما خبز حقيقي (١ وكان استعمالهما جائزًا في القرون الاولى للنصرانية جريًا على احوال كل بلدٍ وما أَلِفهُ الأهلون في العوائد كما يتّضح ذلك مما سنورده

امّا بعد الانفصال فلمّا حمي الخصام بين الفريقين ورُشق اللاتين بسهام الملامة على استعمال الفطير (٢ سنّ الاحبار الرومانيون شريعة ألزموا بها ان يقدّس او يتقرّب كلٌّ بحسب طقسهِ (٣ الّا في بعض ظروف بيّنوها بالتفصيل (٤. وانمّا وضعوا تلك الشريعة تلافيًا

عندهم استعمال الخبز فطيرًا كان او خميرًا . وهذا هو ايضًا تعليم تيودور البيزي. امّا في جنيف فانّهم فضّلوا الخمير سنين عديدة الى أن جرت بينهم مباحثات ومخاصمات ادّت بهم الى إعادة الفطير. واكثر الكلوينيين في ايامنا يعوّلون على الخبز العمومي الاعتيادي اي المختمر

١) زعم البعض ان اللفظة اليونانية ἄρτος التي عبّر بها الانجيليون عن الخبز لاتطلق الّا على المختمر منهُ. لكن هذا الزعم مردود من عدّة اوجه اخصّها: (١ ان الكتاب الكريم يطلق ايضًا هذه اللفظة على الفطير. ففي سفر الاحبار (٢: ٤ و ٥) يذكر ان التقدمة تكون فطيرًا وينعتهُ بخبوز ἄρτους ἀζύμους ويشير اليهِ القديس متى فيسمّيه خبزًا على الاطلاق τοὺς ἄρτους τῆς προθέσεως «خبز التقدمة» (متّى ١٢: ٤). ومعلوم ان خبز التقدمة كان كلهُ فطيرًا كما يشهد بذلك سفر الاحبار (٢: ١١): «جميع التقادم التي تقربونها للرب لا تعمل بخمير». (٢ لمّا اتكأ المسيح مع التلميذين في عمواص (لوقا ٢٤: ٣٠) يخبر الانجيلي انهُ «اخذ خبزًا وبارك وكسر وناولهما» ويعبر عن هذا الخبز باللفظة اليونانية ἄρτος. وليس من احد ينكر ان هذا الخبز كان فطيرًا لانّها كانت ايام الفصح عند اليهود. (٣ كل الشعوب قديمة كانت او حديثة اعتبرت الفطير خبزًا حقيقيًا كالخمير واطلقت عليهِ لفظة خبز. وعرب البادية الذين لا يقتاتون في الغالب الّا بالفطير يسمونهُ بلا خلاف خبزًا. ويقال عن لوط لما اتاه الملاكان انهُ «صنع لهما مأدبةً فخبز فطيرًا واكلا» (تكوين ١٩: ٣)

٢) انفذ سنة ١٠٥٣ ميخائيل كرولاريوس بطريرك القسطنطينية ولاون رئيس اساقفة اكريدة في مقدونية رسالةً الى يوحنا اسقف تراني وطلبا اليهِ ان يبلغها الى البابا لاون التاسع والى جميع كنائس الغرب. واقوى شكوى تضمّنتها هذه الرسالة هي عادة اللاتين ان يقدّسوا الفطير في الذبيحة الالهية. ثم ان كرولاريوس دون ان ينتظر الجواب عمد الى كنائس واديرة اللاتين في القسطنطينية فاقفلها لانّها لم تخضع لمطالبهِ في تبديل الفطير بالخمير

٣) ان الكنيسة اللاتينية تعظم جدًا المقدار الطقوس الشرقية حتّى ان البابا يناول الشمامسة اللاتين دون اليونان عند ما يقدم الذبيحة الالهية في بعض الاحتفالات الحبرية ويخدمهُ فيها فضلًا عن جمهور الكرادلة اكليروس من الطقس اليوناني يقرأُون الانجيل بلغتهم. وذلك رغبةً في المحافظة على الطقوس

٤) سمح البابا لاون التاسع للكاهن اللاتيني ان يقدس الخمير اذا وجد في الشرق بين ظهرانَي

للخصومات وبياناً لاعتقاد الكنيسة مصرّحين بذلك ان كلتا المادتين محمودة وكلتا المادّتين مقبولة تصلح لتتميم سرّ الافخارستيّة

هلمّ الآن نبحث عن استعمال الكنائس الغربية للفطير وعن بدئهِ واسبابهِ . فنقول انّ الكنيسة الرومانيــة تقدس الفطير اقتداءً بما عمل السيد المسيح وجريًا على عادةٍ قديمة ترتقي الى عهد الرسل

انهُ لأمرٌ مقرر ان المسيح لم يستعمل في رسم الافخارستيّة الّا الفطير لانهُ رسمهُ عندما اكل الفصح مع تلاميذهِ وكان محتوماً الّا يوجد اذ ذاك في البيوت سوى الفطير . وقد ورد في سفر الخروج (١٢ : ٢٠) : « لا تأكلوا شيئاً من الختمر بل في جميع مساكنكم تأكلون فطيراً » . وفيهِ ايضاً : « سبعة ايام تأكلون فطيراً . في اليوم الاوّل تخلون منازلكم من الخمير . . . في الشهر الاوّل في اليوم الرابع عشر منهُ بالعشيّ كلوا فطيراً الى اليوم الحادي والعشرين من الشهر بالعشيّ . سبعة ايام لا يوجد خمير في بيوتكم فان كلّ من اكل خميراً تنقرض تلك النفس من جماعة اسرائيل » (خروج ١٢ : ١٥ و١٨ و١٩) . وجاء في محلٍّ آخر (احبار ٢٣ : ٥ و٦) (١ : « في الشهر الاوّل في الرابع عشر منهُ بين العروبَين فصح للربّ . وفي اليوم الخامس عشر من هذا الشهر عيد الفطير للربّ سبعة ايام تأكلون فطيراً

ولا ريب ان المسيح اكل الفصح في اليوم الاول من الفطير كما تأمر الشريعة . وتتضح ذلك من آيات الانجيل الطاهر في قول (متى ٢٦ : ١٧) : « وفي اول يوم من الفطير دنى

قوم يقدسون الخمير ولم يكن هنالك كنيسة يُستعمل فيها الفطير . وكذلك سمح للكاهن ذي طقس الخمير ان يقدس الفطير اذا وجد في الغرب ولم توجد كنيسة يُقدَّس فيها الخمير (مجموعة رسائلهِ ك ١ ف ٢٩) . وفي هذه السنوات الاخيرة سنّ قداسة البابا لاون الثالث عشر شريعة تأذن بمنابرة الطقس في ما يختص بالمناولة في بعض الظروف وقد بيّنا هذه الظروف بالتفصيل مرارًا في جريدتنا البشير . وهذه الشريعة هي بعض استئناف لعوائد كانت تجري الكنيسة بمقتضاها قديمًا

١) معنى الفصح الاجتياز والعبور اشارةً الى ما صنعهُ الرب لما اجتاز بيوت الاسرائيليــين في ارض مصر ولم يصب ابكارهم بأذًى : « اذا قال لكم بنوكم ما هذه العبادة لكم تقولوا هي ذبيحة فصح للرب الذي عبر عن بيوت بني اسرائيل بمصر اذ ضرب المصريين وخلّص بيوتنــا » (خروج ١٢ : ٢٦و٢٧) . واما عيد الفطير فقد رُسم تذكارًا لما حدث للاسرائيليين عند خروجهم من مصر على ما اخبر بهِ الكتــاب المقدس اذ قال : « حمل الشعب عجينهم قبل ان يختمر . . . فاختبزوا العجين الذي خرجوا بهِ من مصر مليلًا فطيرًا اذ لم يكن قد اختمر لانّهم طُردوا من مصر ولم يقدروا ان يتلبثوا حتّى انهم لم يصنعوا لهم زادًا » (خروج ١٢ : ٣٤ و٣٩)

التلاميذ الى يسوع قائلين اين تريد ان نعدّ لك الفصح لتأكل» وقال مرقس (١٤: ١٢) باوفر ايضاح: «في اوّل يوم من الفطير اذ كانوا يذبحون الفصح قال له التلاميذ اين تريد ان نمضي ونعدّ لتأكل الفصح». ومثلهُ لوقا (٢٢: ٧, ٨): «وبلغ يوم الفطير الذي كان ينبغي ان يُذبح فيهِ الفصح فارسل بطرس ويوحنا قائلًا امضيا فاعدّا لنا الفصح لنأكل» وكفى بهذه الآيات برهانًا لدحض آراء من زعموا انَّ المسيح لعلمهِ بدنوّ موتهِ سبق فعجّل اكل الفصح. فانَّ الانجيل يذكر انَّ اليوم الذي اكل فيهِ المسيح الفصح كان اوّل يوم من سبعة ايّام الفطير وانَّ اليهود كانوا يذبحون فيهِ الفصح. ولا يشير الى قصدٍ خصوصي للمسيح بل الى العادة العمومية والشريعة المحتوم على الجميع تتميمها. ثمَّ ان التلاميذ الذين لم يكونوا ليعلموا او يفهموا امر موت سيدهم هم الذين استلفتوا انظاره الى حفظ الوصية وأكل الفصح وفقًا للشريعة. ولا يراء انهم طلبوا اليهِ اتباعها وتتميمها في اليوم المعين في الناموس (مرقس ١٤: ١٢)

ثمَّ ان المسيح كان ذكر الرسل بدنوّ العيد اذ قال لهم: «تعلمون انّهُ بعد يومين يكون الفصح وابن البشر يسلّم للصلب» (متى ٢٦: ٢) «وكان الفصح والفطير بعد يومين» (مرقس ١٤: ١). «وقرب عيد الفطير المسمى الفصح» (لوقا ٢٢: ١). وهذا دليل آخر على ان المخلص كان عزم على اكل الفصح في وقتهِ

ويجدر بالملاحظة ما اوردهُ الانجيليون فقالوا: «ولما كان المساء اتكأ مع تلاميذهِ (متى ٢٦: ٢٠ ومرقس ١٤: ١٧) وزاد لوقا ايضاحًا فقال: «ولما كانت الساعة اتكأ هو والرسل» (لوقا ٢٢: ١٤) وفي تعيين الانجيليّين لليوم وساعة المساء اشارة بيّنة الى ما امر بهِ الله في سفر الخروج (١٢: ١٨): «في الرابع عشر منهُ بالعشي كلوا فطيرًا» وقال ايضًا (خروج ١٢: ٥—١٠): «حملٌ صحيح... ويكون عندكم محفوظًا الى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر فيذبحهُ كل جمهور جماعة اسرائيل بين الغروبين... ويأكلون لحمهُ في تلك الليلة شواء نارٍ بفطير... ولا تبقوا شيئًا منهُ الى الغداة». وفي سفر الاحبار (٢٣: ٥): «في الرابع عشر منهُ بين الغروبين فصح للرب». فمن اسلوب الكلام الذي ذكر بهِ الانجيليون اكل المسيح للفصح يُستنتج برهان قاطع على ان المخلص اكلهُ في اليوم المأمور بهِ والساعة المعينة في الشريعة. لانّهُ كان يحافظ كلَّ المحافظة على القيام بهذه السُنَّة. ولو افترض انهُ لم يجرِ بحسب الوصية على النوع والوقت اللذين رتبهما الله لما كان

اعداء المسيح سكتوا في جملة الشكاوي التي احتجّوا بها عليه زورًا عن هذه المخالفة الصريحة

ولا حاجة الى القول بان كثيرًا من الآباء القديسين علّموا بان المسيح تمّم الفصح الشرعي كما كان واجبًا . فيكفي ايراد شهادة اثنين منهم . فهذا يوحنا الذهبي الفم (في الميمر ٨٤ وفي بعض النسخ ٨٥ العدد ٢ في تفسير انجيل متى) يقول : « ان المسيح لم يتعدّ وصيّة وقت الفصح(١ » . وقال القديس ابيفانيوس « ان المسيح انفرد في الجبل بعد ان اكل الفصح ... وقد تمّم فصح اليهود مع تلاميذه ولم يغيّر شيئًا فيه بل تمّمهُ بالتدقيق كاليهود لانهُ لم يأتِ لينقض الشريعة بل ليكملها (٢ » . وقال فوتيوس في الفصل ١١٦ من مكتبته الشهيرة . « ان المسيح تمّم الفصح الشرعي (٣ » . وعليهِ فيكون السيد قد استعمل الفطير كما تأمر الشريعة

هذه هي اخصّ البراهين التي تثبت ان المسيح اكل الفصح في اليوم المعين في الشريعة وانهُ اكله مع الفطير كما يُؤمَر فيها . فبكل صواب اذًا نستنتج انَّ السيد لهُ المجد قدَّس الفطير لانهُ لم يكن بين يديه اذ ذاك الّا هذا الخبز

ولكن اذا طالعنا ما كتبهُ يوحنا في انجيلهِ في معرض كلامهِ عن الفصح وعن آلام المسيح تقوم امامنا صعوبات ليست بيسيرة وتعترضنا مشاكل عسرة نبسطها كما هي ونلحقها بما نراه احقّ او اقرب الى الصواب

امَّا الآيات التي وردت في انجيل يوحنا ويظهر منها ان المسيح لم ياكل الفصح مع جمهور اليهود فهي هذه : « قبل عيد الفصح لما كان يسوع يعلم ان ساعته قد اتت ... فحين كان العشاء .. » (١٣ : ١ و٢) . وقولهُ : « ولم يدخلوا الى دار الولاية لئلاَّ يتنجسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح » (١٨ : ٢٨) . وقولهُ ايضًا : « وكانت تهيئة الفصح وكان نحو الساعة السادسة » (١٩ : ١٤) . وفي الفصل ذاتهِ : « اذ كان يوم التهيئة فلئلَّا تبقى الاجساد على الصليب في السبت لان يوم ذلك السبت كان عظيمًا » (١٩ : ٣١) الى ان قال : « فوضعا يسوع هناك لاجل تهيئة اليهود » (١٩ : ٤٢) . فيظهر من هذه الآيات كلها ان عيد الفصح وقع تلك السنة يوم السبت لا يوم الجمعة وعليهِ كان واجبًا اكل الحمل الفصحي مساء الجمعة

١) « ου γαρ αν ο Χριστος παρεβη τον καιρον του πασχα »

٢) في كتاب الهرطقات الهرطقة ٥١ العدد ٢٧

٣) « ο Χριστος το νομικον επετελει πασχα »

لا مساء الخميس · والحال ان المسيح اكل الفصح مساء الخميس ولم تكن ايام الفطير قد ابتدأت . فليس اذاً برهان قطعي ان المسيح قدّس الفطير

فنحل هذا المشكل نقول انَّ لليهود في حساب الايام طريقتين حساب طبيعيّ وحساب شرعيّ · فالطبيعيّ يتبع اليوم الطبيعيّ من نصف الليل الى نصفه · والشرعيّ او العيدي حدُّه من الغروب الى الغروب · فالانجيليون متّى ومرقس ولوقا اذ يتكلمون عن اول يوم من الفطير يراعون اليوم الشرعيّ الذي وقوعهُ يوم الجمعة ١٥ نيسان وبدؤهُ مساء الخميس ١٤ نيسان · وعليهِ فكان بدء الفصح مساء الخميس وفيهِ اكلوا الفطير · امَّا القديس يوحنا الذي كتب انجيله لاجل اليونان خاصةً (١ فانهُ يراعي في حساب الأيام عادة اليونان والرومانيين الذين كانوا يبدأون اليوم من نصف الليل · فبقولهِ « قبل عيد الفصح » يعني ليلة العيد · فكانهُ قال : مساء الخميس قبل يوم الجمعة الذي كان فيهِ عيد فصح اليهود · ويؤيد هذا التفسير ما ذكرهُ يوحنا في الموضع نفسهِ · فانهُ اردف كلامه « قبل عيد الفصح » بهذه الآية : « فحين كان العشاء » يريد العشاء المعهود والمشهور · فعبارة يوحنا ترادف قولنا : مساء الخميس الواقع قبل عيد الفصح وقت العشاء الفصحي اتكأ يسوع مع تلاميذهِ ليأكل معهم الفصح · ومن هنا يتّضح ان القديس يوحنا بقوله « قبل عيد الفصح » لاينفي وقوع عيد الفصح في يوم الجمعة ١٥ نيسان

ولكن ما الجواب على الاعتراض المبني على قول يوحنا انَّ يوم موت المسيح كان « يوم التهيئة » و « تهيئة الفصح » وان اليهود « لم يدخلوا دار الولاية لئلّا يتنجّسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح » . فهذه الآيات تدلُّ صريحًا على ان اليهود ضحى نهار الجمعة لم يكونوا بعد قد اكلوا الفصح وانهم كانوا يتهيأون ليأكلوه مساء ذلك النهار

(ستأتي التتمة في العدد الآتي)

---

١) كتب يوحنا هذه الامور بعد ان مضى عليها ما ينيف على ستين سنة . وفي انجيلهِ ما يدلّ على انهُ يكتب لأمم لم يألفوا عوائد اليهود . ولذلك كثيرًا ما تراه يفسّر لهم احوال العبرانيين وينقل الفاظ لتهم الى اليونانية ويصف الامكنة الوارد ذكرها الى غير ذلك من الادلّة التي تبين مراعاتهُ لامور الامم الذين يبشرهم

كتب

تاريخ بيروت واخبار الامراء البُحتُريين من بني الغَرب

لصالح بن يحيى

سعى بنشرهِ وتهذيب عبارتهِ وتعليق حواشيهِ

الاب لويس شيخو اليسوعي

(تابع لما قبل)

وامَّا القناة (١ التي كانت تجري اليها فهي من المآثر العجيبة وكانت تجري من مكان يسمَّى المَرْعار (٢ من ارض كسروان (٣ قيد اثني عشر ميلًا

---

١) هذه القناة من عجائب الآثار القديمة وقد بقي منها الى اليوم بقايا ضخمة موقعها في وادي المرعار بين قريتيْ برمانا وبيت مري وهي المعروفة عند البعض بالجسر الروماني والغالب عليها اسم قناطر زبيدة. ويقول العامَّة ان زبيدة زوجة الخليفة هرون الرشيد هي التي شيَّدتها لتستجلب بها مياهاً عذبة لبيروت. وينسبها البعض الى زينب ملكة تدمر الشهيرة. والصحيح انَّ هذه القناطر قديمة العهد تنبئ هندستها على شغل الرومانيين. وفوقها كانت تجري المياه المجلوبة من نبع نهر بيروت. وقد زعم البعض ان باني هذه القناة هو بطليوس المعروف بالشهير شيَّدها في اواخر القرن الثالث قبل المسيح. وقد زارها العلَّامة الاب ميشال جوليان اليسوعي منذ نحو اربع سنوات ووصفها وصفاً مدقّقاً. وسننقل ان شاء الله وصفهُ في بعض اعداد مجلّتنا المشرق لما فيها من جزيل الفوائد وهو يبيّن في مقالتهِ انَّهُ كان ينصبُّ بالقناة في الثانية متر مكعَّب من الماء اي ازيد ممَّا تأتينا بهِ الآن آلات جمعية نهر الكلب الانكليزية بنحو خمس عشرة مرَّةً. هذا وانَّ في قرب الشياح آثارًا لقناة كانت تجري بها المياه الى بيروت فيقال انَّ مياه النهر كانت منقسمة الى قسمين فتأتي بيروت شرقًا الى مصنع في محلّ القيبات وجنوبًا الى مصنع في الشيَّاح ومنهما تجري المياه فتعمّ سائر انحاء البلدة

٢) يستدلُّ من هذا ان اسم الوادي الذي فيهِ يجري نهر بيروت هو المرعار. وبهِ سمَّى البعض نبعَ هذا النهر نبعَ المرعار. وكان القدماء يدعونهُ نهر ماغوراس

٣) انَّ اسم كسروان لم يحصر في قديم الزمان في المقاطعة المعروفة اليوم بهذا الاسم وانما كانت تمتدّ الى جهة المتن الاسفل

ومما يُستدلّ على كبر بيروت وسعتها(١ ما يجدُ الناس في الحدائق بظاهرها من

١) قد احببنا ان نروي هنا نبذة ملخَّصة من تاريخ بيروت القديم الى الزمان الذي ذكرهُ المؤلف لئلَّا تفوت هذا الكتاب ما ورد في غيرهِ من الفوائد التاريخية التي يجب اهل بيروت الاطلاع عليها فنقول :

قد سبق انَّ بيروت من اقدم مدن الله عهدًا. بيد انهُ لم يكن في يدنا الَّا النزر القليل من اخبارها في القرون السابقة للمسيح حتَّى صرَّح الحق عن محضهِ منذ عشر سنوات لمَّا اكتُشفت في الصعيد تلك الكتابات الجزيلة الأهمية المعروفة برسائل تلّ أمرنا. وهي عبارة عن مجموع رسائل وردت ملكَي مصر امينوفيس الثالث وامينوفيس الرابع من قبل عمَّالهِ في كنعان فضلًا عن مراسلاتها مع ملوك سورية وبين النهرين في القرن الخامس عشر قبل المسيح وهذه الرسائل مكتوبة باللغة الاشورية او البابلية وهي محفوظة في متاحف لندرة وبرلين وبولاق

فيستخلص من هذه المكاتبات ان بيروت كانت في اوَّل امرها كبقيَّة مدن فينيقية خاضعة لملوك اشور ونينوى الاوَّلين. والدليل على ذلك انَّ اهلها وحكَّامها كانوا يتكلَّمون باللغة الاشورية ويكاتبون بها ملوك مصر بعد ان فقد البابليُّون ولايتها. وبقي اللسان الاشوري شائعًا في ظهراني الامة الفينيقية وعنهُ تفرَّعت اللغة الكنعانيَّة ثمَّ الفينيقيَّة. ولمَّا قويت شوكة الفراعنة تولَّوا على سواحل فينيقية نحو القرن الثامن او التاسع عشر قبل المسيح وكانت بيروت من جملة ما ملكت ايديهم. وجعل ملوك مصر لكل بلدة « خزاني » اي ولاة كانوا يختارونهم بين الاهلين تحت مراقبة حكَّام مصريين يدعونهم « ربيصي ». ولوالي بيروت في ذلك العهد عدَّة رسالات وُجدت بين كتابات تلّ امرنا يتضح منها جليًّا ان بيروت (وهم يدعونها بيروتا او بيرُوتُو) كانت على جانب من الحضارة والعمران في القرن الخامس عشر قبل المسيح فيعدُّونها بين المدن المنيعة الحريزة كصور وصيدا وجبيل ويذكرون كثرة سفنها العامرة بالملَّاحة

هذا ولمَّا تضعضعت دولة الفراعنة في القرن التاسع او العاشر قبل المسيح تقلَّبت الاحوال على بيروت فحلَّ بها ما حلَّ بأخواتها من المدن الفينيقية وتملكها تباعًا بعدهم ملوك بابل ثمَّ ملوك فارس ومادي ثمَّ الاسكندر وخلفاؤهُ من السلوقيين. واستقلَّت مرارًا عند استقلال غيرها من مدن فينيقية تشهد بذلك الآثار والنقود التي وجدت بها. وفي سنة ١٤٠ ق م اخربها تريفون لثبات اهلها على طاعتهم للملك انتيوخس السادس. لكنها لم تلبث إن تعود الى ما كانت عليهِ من رفعة المقام (راجع العدد الاول من المشرق ص ١٩) . ودخلها بوميُّوس القائد الروماني فرمَّم آثارها واعاد لها رونقها. ولم تزل مذ ذاك ترتقي في معارج الفلاح الى ان جعلها اوغسطس قيصر مدينةً اوَّلية فخوَّل اهلها حقوق الرومانيين وافاض عليهم نعمًا عديدة اختصَّهم بها دون سواهم وولَّى امرها القائد مرقس فسبيانس اغريبا بعد ان زوَّجهُ ابنتهُ جوليا فدعا بيروت باسمها جوليا فيلكس (اي السعيدة) . فاخذ اغريبا يباري قيصر في رفع شان المدينة ساعدهُ على ذلك هيرودس الكبير. ولم يدَّخر كلاهما شيئًا من الوسع ليجعلاها من ابهى مدن الشرق. فشيَّدا فيها الابنية الجليلة الآئلة لمنفعة الجمهور كالهياكل والمشاهد والحمَّامات ومخازن التجارة. فتقاطر الى بيروت كثير من الرومانيين

الرخام وآثار العمائر القديمة ما طولهُ قريب من ميلين اولهُ مكان يُسمَّى بُليدة وذو قسية (١ غربيّ البلد الى مكان يسمَّى حقل القشا (٢ مقارب النهر شرقي البلد . فلمَّا عمَّروا السور اختصروهُ على القدر الذي هو عليهِ اليوم

وقد زعم النصارى أنَّ في القدَم خرج في بيروت تنِّين عظيم فقرَّر اهل بيروت لهُ

والنرباء فاستوطنوها وزادت بهم حسنًا وعمرانًا . وسكنها طابوران من الجنود الرومانيين المتقاعدين وبها حكم هيرودس الكبير بالموت على ابنَيهِ اسكندر وارسطابولس فقتلهما ظلمًا كما قتل أمَّهما مريمة وهي من سلالة المكابيين . وبقيت بيروت على ذلك مدة الى ان تولَّى امرها بعد المسيح هيرودس اغريبا الاول ثمَّ هيرودس اغريبا الثاني فبلَّغاها من الحسن ما لم يسمهُ قول . فشيَّدا فيها الملاعب والمراسح وزيَّناها بالتماثيل الى غير ذلك . وفي بيروت بويع بالملك لفسباسيانوس بعد وفاة نيرون . وفيها احتفل ابنهُ تيتوس قيصر بانتصارهِ على اليهود يوم مولد ابيهِ بما لا مزيد لهُ من الفخر والأبَّهة

امَّا العلوم فكانت بيروت قد سبقت غيرها من المدن الفينيقية في الانكباب عليها فراجت فيها اسواق الآداب . وفيها كتب كما زعم اوسابيوس القيصري سنكُنيتُن الكاهن القديم تاريخًا ابقى لنا منهُ فيلون الجبيلي فِقرات مهمَّة . وفي ايام اوغسطس قيصر اخذ البيروتيون يدرسون الفقه . وتوسع نطاق هذا الفن بينهم حتَّى صارت مدرستها الفقهية في القرن الثالث للمسيح غرَّة في جبهة المشرق يتسابق اليها الدارسون من كل أوب . فدُعيت بيروت لذلك «محطّ العدل وصوان المشترعين». وقد اشتهر في بيروت عدَّة من العلماء الاقدمين منهم أُوليان الفقيه صاحب كتب الشرائع الذي ازهر في القرن الثالث . ومنهم فالريوس بروبوس اللُّغوي البارع عاش في القرن الرابع

وقد اطنب الكتَّاب الاقدمون في مدح بيروت لامور اختصَّت بها . فمن ذلك نخلها ويظهر من عدَّة كتابات ان تربتها كانت تُعَدّ من اخصب الترب واوفقها للنخل . ومنها خمرها الجيّدة وصفها بهِ الكاتب بلينيوس الطبيعي وقال انَّها تتَّجر بهِ اتجارًا واسعًا (Pline, l. XIV, c. 7. l. XV, c. 17) . ومن ذلك ايضًا معاملها للانسجة ومصابغها ورد ذكرها مرارًا فجارت بذلك صور وصيدا . وكان فيها معامل للحرير قبل الاسلام (Joannis Strauchi dissertatio de Beryto, *Brunzvigæ*, 1662, p. 6)

ولم تبرح بيروت رائعةً في منازل السَّعد الى ان هوى نجمها وطمست محاسنُها وذلك في القرن السادس للمسيح فهدمتها زلزلة هائلة خرَّبت قسمًا كبيرًا من مدن الشرق . وبقيت على هذه الحالة الى اوائل القرن السابع فاستولى عليها المسلمون دون عائق

١) لم نسمع لهذين المكانين ذكرًا ولم يفدنا احدٌ عنهما شيئًا . ولعلَّ هذه الآثار هي التي اكتشفها حديثًا الدكتور جول روفيه وارتأى انَّها بقايا مدينة بيروت الفينيقية وانَّها كانت تدعى لاذقية كنعان وقد وجد فيها نقودًا بهذا الاسم . وقد وقف ايضًا هناك على مدفنها الفينيقيّ كما بشَّرنا قرَّاءنا بهذا العدد

٢) وهذا المحل ايضًا لم يرشدنا اليهِ احدٌ من الاهلين

في كل عام بنتاً يُخرجونها اليهِ اكتفاء لشرّهِ فوقعت القرعة في سنةٍ من السنين على صاحب بيروت . فاخرج بنتهُ ليلًا الى مكان موعد التنين فتوسَّلت بالدعاء الى الله فتصوَّر لها مار جرجس القديس . فلمَّا جاء التنين خرج عليهِ مار جرجس فقتلهُ فمرَّ صاحب بيروت في ذلك المكان كنيسة بالقرب من النهر . والنصارى تصوّر هذه الكائنة في سائر كنائس بلادهم قلَّ ما يخلو منها كنيسة . ويزعم النصارى انَّ مار جرجس من لدَ قتلهُ ملك عبدة الاصنام بجوران ولهُ عيد مشهور عندهم في سائر البلاد . واهل بيروت المسلمين والنصارى يخرجون في ذلك العيد الى نهر بيروت ويسمّى عيد النهر وهو من البدع (١ . (وجاء في حاشية الكتاب: عيد النهر المذكور دائمًا يكون ثالث وعشرين نيسان)

وايضاً يزعم النصارى انَّ البربارة كانت قديسةً ولها نشبٌ كبيرٌ ببيروت (٢ وعيد البربارة منسوبٌ اليها

ويزعمون ايضاً انهُ كان بكنيسة الفرنج ببيروت قونة خشب فيها صورة مصوَّرة فضربها بعض اليهود بسكين فصارت تنزف دمًا . ونُقلت هذه الصورة الى قسطنطينية فعمَّروا عليها كنيسة يعظّمها الفرنج (٣ (ستأتي البقية)

١) قد روينا هذه القصة كما اثبتها المؤلف الّا اننا لا نقطع بصحتها . وقد بحث فيها البولندستيون بحثاً مدقّقاً فلم نرَ حاجة لايراد ما قالوا . واعمال القديس جرجس مضطربة جدًا تلاعبت فيها ايدي الكتّاب . وما نتقرّر انهُ وكان من شهداء القرن الثالث للمسيح وكان جنديًا في عسكر الملك ديوكليسيان . قيل انهُ قتل في نيقوميديا وقيل في لُدّ وقيل في بيروت . وذكرهُ كان منتشرًا في كل انحاء المشرق . واسمهُ مدوَّن في أقدم سجلّ للشهداء الذي نشرهُ بالطبع العلّامة الانكليزي رَيت (Wright) وهو بالسريانية وتاريخهُ سنة ٤١١ للمسيح وُجد في دير لاسقيط بالصعيد

٢) لعلَّ المؤلف يريد ان لها اوقافاً حبسها النصارى على كنائسها زهدًا وتعبُّدًا . والقديسة بربارة احدى العذارى الشهيدات التي ماتت في سبيل الايمان المسيحيّ في عهد ديوكليسيان

٣) ورد ذكر هذه المعجزة في جملة كتابات للقديس اثناسيوس بطريرك الاسكندرية . والصواب انَّها لكاتب آخر سمّيهِ جاء بعدهُ . وفي اعمال مجمع نيقية الثاني قد ذكر الآباء امر صورة بيروت ولها عيدٌ يحتفل بهِ في كنائس الشرق والغرب . والتذكار الروماني يذكرها في اليوم التاسع من تشرين الثاني (راجع البولندستيين وكتاب مروج الاخيار)

وهنا يجدر بنا ان نذكر بعض آثار تختص بذكر النصرانية في بيروت قبل الهجرة فات المؤلف ايرادها فنقول :

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعيّ)

(تابع لما قبل)

فاجاب الحطّاب متردّدًا : ربّما يكون . امّا انا بلا مؤاخذة من جنابك يا سيدي فلا اعرفك. وكيف اعرفك وانت خواجه غني كبير وانا فلاّح مسكين ما طلعت في عمري خارج الضيعة

قال هذا والقى ظهره ليستند الى الحزمة. فكأنهُ اضرَّ بهِ الحرّ والتعب او ظنّ انّ الغريب يسخر بهِ فلم يبالِ بشأنهِ ولم يعبأ باقوالهِ. وليست كذلك حالة امثالهِ اذا رأوا في بلدهم غريبًا ولاسيَّما اوربيًّا فانَّهم يرحّبون بهِ ويكرمون مثواهُ

فساء المسافر إعراضُ الحطّاب فلم يزِد ايضاحًا بل عاد فلفّ الاربيش على النارجيلة وهمّ بالانصراف قائلًا بكل هدوّ : لا تخلو الضيعة من اصدقاء لم ينسوني . فانت يا بطرس

ما كادت تلوح شمس النصرانية في العالم حتَّى اصابت بيروت من اشعَّتها. وقد جاء في تقاليد قديمة انَّ المسيح لهُ المجد دخل بيروت لمَّا كان متجولاً لبشارة الانجيل في تخوم صور وصيدا (مرقص ٧ : ٢٦) . ولا غرو ان الرسل اجتازوا بها مرارًا في غضون اسفارهم ونشروا فيها النصرانية لا سيما بطرس الصفا هامة الرسل و بولس رسول الامم

وجاء في كتاب تفاسير القديسين بطرس وبولس (راجع البولندستيين في الجزء ٢٧ ص ٢٧٦) انَّ القديس بطرس عند خروجهِ من حبس هيرودس سار الى صور وصيدا ثمَّ الى بيروت ونصب احدَ رفقائهِ عليها اسقفًا . وورد في اعمال القديس كوارتوس انهُ اول اسقف اقيم على بيروت وانهُ كان من عداد التلامذة السبعين يذكرهُ بولس في رسالتهِ الى الرومانيين (ف ١٦ آية ٢٣)

وقد ورد في كتاب سيرة الرُّسل الاثني عشر (كتبهُ هيبوليت التبي في القرن الثاني عشر) انَّ يهوذا الرَّسول استشهد في بيروت وبها دُفن (راجع البولندستيين الجزء ٦٠ ص ٤٤٠) وهكذا ورد في تاريخ متَّى بن سليمان . وقيل بل يهوذا احد السبعين تلميذًا

وممَّن يحقّ لنصارى بيروت ان يفتخروا بهم الشهيد ايانوس وكان درس الفقه في مدارس بيروت . وفيها ايضًا تلقَّن العلوم القديس غريغوريوس العجائبي اسقف قيساريَّة . ومن ابناء بيروت القديسان حنًّا واركاديوس ولهما قصَّة غريبة اشبه بقصة القديس اوستاكيوس القائد الروماني . ومنهم ايضًا القديس رومانوس الشمَّاس صاحب التسابيح التي تتغنى بها الكنيسة اليونانية

منصور لا تُلام لانك كنت صغيرًا في تلك الايام . ولا شكّ ان الطحّان غمر بشاره يعرفني لاول وهلة . فكيف شغله ؟

— خربت مطحنته ونبت موضعها الداب والحور

— والطحّان غمر ماذا جرى لهُ ؟

— اظنّ انه انتقل مع عائلته الى بيروت والله اعلم بحاله ولربّما مات ايضًا . والآن أفهم يا خواجه انك تتكلّم عن زمن جدّي لكنك لا تحصـل على جواب الّا من حفّار القبور الساكن في كوخ عند المقبرة فهو يعرف كل شيء . ويعدّ لك على اصابعه كل الحوادث التي جرت من مئة سنة

— لا يخفاني ذلك ولا يبعد ان يوسف روحانا جاوز التسعين

— يوسف روحانا ؟ . . . . ما هذا اسم الحفّار . اسمهُ فارس عبود

تنفّس الغريب الصعداء . وهتف اشكرك اللهمّ لانك ابقيت على احد اترابي

— كأن فارس صاحبك يا خواجه ؟

— صاحبي ؟ لا . فاننا كنّا في خصام دائم . ومرّةً كنّا نتصارع فزجيتهُ في الساقية الطامية من الامطار فكاد يغرق . ولكن ذلك قديم العهد ولا ريب ان فارسًا يُسرّ بلقاءي . وانا ذاهب اليه في الحال

وعندئذٍ اخذ قطعةً من الفضّة واعطاها للدكاني واعدًا بان يتردّد اليه ليدخّن عندهُ بالنارجيلة فاجاب هذا : الحلّ محلّكم يا سيدي والكل تحت امركم . واشار الى احد ولديه ان : احمل خرج الخواجه ورُح في خدمته

فشكر الرجلَ قائلًا : ما من داعٍ الى ان تتعبه . ونفح الصبي بدرهمٍ واخذ منهُ الخريطة وانحدر في طريق متوعرة شرقيّ الخان وقد خرج الدكاني يشيعهُ مكثرًا من اشارات الاحترام وعبارات الامتنان « شرفتم الله يحفظكم ربنا يطيل عمركم » حتى توارى المسافر عن ابصاره فعاد وهو لا يتمالك من الفرح لما نالهُ من الحلوان

٣

فسار المسافر ينوي خميلةً من الصنوبر كان عهدها في صباهُ يروق لهُ منظرها . فما ادركها حتى تقبّض واخذ منهُ الحزن . لأنّ عينهُ لم تقع الّا على اغراسٍ حديثة امّا الاشجار الباسقة التي كان يستظلّ تحتها فوجدها قد عبثت بها ايدي الدهر وتلاعبت بها عواصف

الرياح فكسرتها وقطعت فؤوس الحطّابين جذورها المتأصلة في الارض فاصابها ما اصاب السكّان من الخراب والفناء. وقد قام مكانها شجيرات لم يألف جنسها ولم تفده خبرًا عن احوال الاهلين

بيد أنهُ كان يسمع تغريد الطيور المعشّشة فوق الاغصان فوجدها لم تزل تصدح كالوف عادتها فتشنّف الآذان باصواتها المطربة. وكذلك كان يعمل في قلبه حفيف الشجر لتلاعب النسيم باغصانها وقد علاها الجُذجد وهو يصرصر لحمارَّة القيظ وكانت الزهور تبعث اليه بروائحها الذكيّة فتلذُّ حاسّة شمّهِ. ففي كلّ هذه المناظر لم يجد ما غيّرتهُ الأيام سوى اعمال البشر اما الطبيعة فلم تنفكّ تجري على ما رضتها لها الحكمة الازليّة من النواميس

فمشى في الخميلة حينًا يلوح على محيّاه ما يزدحم في قلبه من العواطف فطورًا يغلبهُ الفرح لوصوله الى مسقط رأسه وتارةً الكدر لوجوده نفسهُ غريبًا في وطنهِ. ويبدو في حركاته ما يتنازعهُ من عوامل الخوف والرجاء. فحينًا يخشى ان يدوي في اذنهِ الجواب على كل سؤالٍ عن الاحباب «مات. ماتت» فيقدّم رجلًا ويؤخّر اخرى. وحينًا ينعش الامل فؤادهُ فيرجو ان تكون سهام الدهر اخطأت تلك التي وجّه اليها افكارهُ وعواطفهُ بيد أنهُ لا يشكُّ انها لو بقيت في قيد الحياة لا تزال بعدُ ثابتة على عهدهِ فيمكنهُ الاستمتاع بلقياها فينسى بقربها ما تجشّمهُ من الأخطار وقاساهُ من الاهوال فيزيد هذا الفكر في نشاطهِ وسرعة مشيهِ

وما كاد يخرج من الخميلة حتّى لاح لهُ مشهد بديع فرأى رياضًا اريضةً اكتست حلّةً خضراء وشّاها بنان الربيع تنساب في ارجائها جداول المياه كأنها افاعٍ تتململ او دموع تتسلسل او لجين يسيل او صفحة سيف صقيل. ومنها ما يجري في قنيّ واسعة ثمّ يهوي من علٍ فيدير المطاحن ويسمع لها دويّ وجعجعة تطنّ لها الآذان. فسار قليلًا واذا ببيوت ابي القريّة برزت للعيان وهي مبنيّة من الحجر المنحوت الاصمّ منها بيضاء السطوح ومنها ما علاها القرميد الاحمر. وقد امتازت بين هذه المساكن كنيسة الضيعة مكلّلة بقبّة جرسٍ يزينها صليب ابيض يلمع كالنجم الهادي

هي القرية. هو الوطن. فما كادت شفتاه تنطق بذلك حتى همت على خدّيه دموع الفرح وسقطت من يدهِ الخريطة فمدّ ذراعيهِ كأنهُ يحاول الطيران وفي قلبه من العواطف ما يعجز عن وصفها القلم. فانهُ جاب البلاد وطاف عواصم الممالك الاوربيّة وتفقّد مصانعها ومعالمها

ولكنهُ لم يداخلهُ قطّ يوماً من عجائبها ما داخلهُ لدى نظرهِ لمسقط رأسهِ بعد طول الفراق ومرّ البعاد

وكانت الشمس ساعتئذٍ في كبد السماء. فقُرع جرس الكنيسة ايذاناً بصلاة الظهر. فخرَّ الرجل جاثياً على ركبتيهِ ولم يمنعهُ حرّ الشمس من كشف قبعتهِ واحناء رأسهِ خاشعاً فصلى صلاة حارةً ثم وجه الحاظهُ نحو السماء فارسلت عينهُ الى ابي المواهب عبارة الشكر الجزيل خارجة من صميم الفؤَاد. وبعد ذلك اخذ خريطته واسرع في السير وعينهُ شاخصة الى قبة الجرس ولسان حاله يقول:

سقياكِ يا كنيسة الوطن فانكِ انتِ لم تتبدلي ولم تغيّركِ الاعوام ففيكِ نلتُ نعمة العماد وما بين جدرانكِ فزت بنعيم المناولة الاولى فطالما قرّت بكِ عيني وطابت نفسي بما فيكِ

لقد أُتاح لي السعد ان اعود فاراكِ وارى على مذبحكِ تمثال البتول في حلتها السماوية وتاجها الفضي. واشاهد ايليا النبي وفي يدهِ الحسام وأرى جرجس يطعن التنين المريع وكم حلمت بهِ فهالني رؤيا التنين في منامي. اعود فاسمع الاناشيد الشجية وطالما انعشتني نغماتها

قال هذا واداماُ السير الى جسر فوق ساقية فانبسط قلبهُ ولاحت انوار نفسهِ على وجههِ فتهلل حبوراً وهتف: الى هذا المقام شيّعتني أنيسة. هنا ودّعتها وأودعتها فؤَادي. وفي ذلك الزمن كانت الرياض زاهرة كما هي الآن والطيور تغرّد كانها تعللنا بالاماني

فامسك عن الكلام وعبر الجسر وهو يتنهد ويقول بصوتٍ خافتٍ: لعمري ان تلك الزهور شهود الوداع قد ذبلت وفنيت وتلك الطيور قد ماتت وهاك صغارٌ صغارها تنعش الآن همّة الشيخ الفاني وقد كادت تغني ايام الهناء. وانيسة ما حالها ؟ ما حلّ بها يا ترى أو هي في قيد الحياة ؟ هل بقيت على العهد ثابتة ؟ ما ادراني انها لم تتأهل ورزقها الله اولاداً شُغلت بهم عن كل شاغل ؟ بعدنا عن العين فسلاكم القلب. فاهل الوطن لا يذكرون المنكود الحظ الذي ساقهُ سوء طالعه فابعدهُ عن الديار. قال هذا وبدا على ثغره تبسّم الهزء والتهكم. لكنهُ ما لبث ان زجر هذه الافكار فقال:

— ويحكَ ايها القلب الضعيف ثارت فيك الغيرة كانك لم تزل في ربيع الحياة. مضى زمن الصبا فدع الاوهام ... ما هي حقوق مثلك فجئتَ تطالب بها. أوَ كان على الاحياء ان تنتظر بصبرٍ عودة الغريب من عالم الاموات ... ولكن أتراها لا تعرفني أو لا تذكر قديم العهد بيننا ... المهي ان يكن لي بعض المقام في زوايا قلبها فلا اندم على رجوعي

من بلادٍ سحيقة ومعاناتي اهوال الاسفار واترك ناعمَ البال رهدة تبري بين اهلي واخواني . . .

وفيما هو على تلك الحال تتناوشهُ الافكار المحزنة دخل القرية يحاول ان يتعرَّف بالبيوت الجديدة . فساءهُ منظر القرميد وشكلهُ الهرمي فوق المنازل وكأنهُ اعتبر تشييد البنايات على نسق اوربي إجحافاً بحق لبنان ومجدهِ وكاد يخامرهُ شكٌّ في انهُ ضلَّ طريقهُ ودخل غير قريتهِ . على انهُ ابصر بيتاً صغيراً عرفهُ فهرول اليه وولجهُ دون تردّد . فتراءى لهُ في داخله امرأة وشيخ احنتْ ظهرهُ الايام وهو ساكن كالصنم وجههُ مائل الى الارض ورأسهُ مسند الى عصاً توكّأ عليها بيد مرتجفة . فما وقعت عينهُ على الشيخ الّا عرفهُ فدنا منهُ وامسك بيدهِ وصاح بصوت الفرح : تبارك الله الذي ابقاك يا ابا ناصيف . فانت بقيّة فاضلة من الزمن الماضي أفلم تعرفني . ألا تذكر ذاك الصبي الغرّ الذي كان يطفر من فوق السياج وياكل مشمشك قبل نضجه ؟

قال الشيخ : « ست وتسعين سنة » . غمغم هذا ولم يتحرَّك

— صدقتَ اني اعلم انك طاعن في السن . . انما ناشدتك الله يا ابا ناصيف ان تخبرني عن انيسة ابنة الصباغ هل هي في قيد الحياة ؟

فكرّر الشيخ مجمجماً : « ست وتسعين سنة »

وكانت المرأة قد ثابت الى نفسها من دهشة عرتها لدخول هذا الموسر الغريب الى بيتها فقالت لهُ : انهُ اعمى واطرش يا خواجه لا تتعب نفسك فلا يسمعك

— اعمى واطرش ؟ يا لله من صروف الزمان ما اكثر نكباتها في عشرين عاماً ؟ فكأني امشي بين اطلال عصرٍ بالية

قالت المرأة : سمعتك تستعلم عن انيسة ابنة الصباغ يا سيدي فصبّاغنا لهُ خمس بنات ولكن لا واحدة منهنَّ اسمها انيسة فالبكر اسمها مريم اقترن بها معلم المدرسة والثانية راحيل والثالثة جميلة . . .

فصاح المسافر بفروغ صبر لا اسألكِ عن هؤلاء بل عن عائلة ايوب الحمدوني

— قالت المرأة : هؤلاء ماتوا كلهم من زمان (ستأتي البقية)

شتى

مدفن بيروت الفينيقيّ

بشَّرنا الدكتور جول روفيه أنهُ اكتشف مدفن بيروت الفينيقي القديم وموقعهُ حيث كان وجد سابقًا آثار مدينة لاذقيّة كنعان. فجاء هذا الاكتشاف مؤيّدًا لما بيّنهُ بمقالته عن هذه المدينة فاثبت انها هي بيروت الفينيقيّة. وقد ارسل الى المجمع العلميّ في باريز ألوكةً يخبره عن هذا الاكتشاف المهمّ

الموارنة في اورشليم في القرن الخامس عشر

كنّا ابدينا الرجاء في اوّل نبذتنا التاريخيّة عن الاخ غريفون وجبل لبنان ان تستنهض مقالتنا همّة الادباء للبحث والتنقيب عن احوال الشرق. فما خاب رجاؤنا وهاك وردتنا رسالةٌ للمعلم الفاضل رشيد افندي الشرتوني افتتحها باذكى الثناء على مجلّتنا المشرق وعقّبها ببعض شواهد على وجود كهنةٍ من الطائفة المارونية في اورشليم في القرن الخامس عشر. والحالَ يقال اننا نحن ايضا رجّحنا هذا الرأي بل قرّرناه بشهادة احد الزوّار الالمان المعاصرين للاخ غريفون فقلنا: «انهُ يتكلم عن موارنة مقيمين في كنيسة القيامة فيُستدلّ من ذلك على وجود كهنة موارنة في اورشليم» (المشرق ع ١ ص١٤). فجاءت رسالة جناب المعلم المومإ اليهِ بحجّتين اخريين تؤيدان قولنا بما لا يبقى بعدهُ ادنى ريب:

فالدليل الأوّل ما ذكرهُ العلّامة الدويهي في الفصل التاسع عشر من كتابهِ المعروف بردّ التُّهم ودفع الشُّبه يقول فيهِ ان الموارنة كانت لهم في القدس كنيسةٌ على اسم القديس جرجس بها رهبان وانّ الاقباط تملّكوها بعد ذلك. فوجود كنيسة لهم يستلزم وجود كهنة فيها لخدمتها

والدليل الآخر «انّ الملكة كونسطانسة زوجة روبرتس ملك صقلّية قد سلّمت الموارنة مغارة الصليب مع اربعة مذابح في اربع كنائس وهي القيامة وقبر مريم والطور

وبيت لحم» (الدويهي ص ٤٦٢ وكتاب الدر المنظوم) . وذلك شاهد بيّن عن وجود كهنة يقومون بخدمة الموارنة في الروحيّات

(قلنا) ونشكر المعلّم الاديب رشيد افندي على هذه الافادات ولنا الامل ان يقتدي به غيره من اصحاب الفضل والعلم فيوءازرونا على التنقير والتنقيب في احوال هذه البلاد لنقف على اسرارها وننشر ما دُفن من آثارها ه . ل .

كتب شرقية جديدة

Bibliographie des ouvrages Arabes ou relatifs aux Arabes publiés en Europe de 1810 à 1885, par V. Chauvin. 2e partie, Liège. 1897.

قائمة الكتب العربيّة او المنوطة بالعرب التي نُشرت بالطبع في اوربّا من سنة ١٨١٠ الى ١٨٨٥

(للمعلم فيكتور شوفين احد المدرّسين في كليّة لياج)

ان المعرفة بالكتب من انفع الفنون واهمّها ومن لا يحكم هذا الفنّ في ايّامنا لا يمكنهُ ان يُنظم في سلك العلماء المحقّقين . بيد انّ الادباء اذا احرزوا هذه الدراية بتصانيف الكتّاب اقتصدوا لهم وقتاً ثميناً يغنيهم عن التفتيش المُمِلّ . وعليهِ فيُقتضى الشكر لمن اقدموا على عمل مثل هذا تيسيراً لإدراك المطالب . وقد استحقّ المعلّم الفاضل فيكتور شوفين ثناء العلماء بمباشرتهِ لعمل جليل مثل هذا وقد وصف البشير القسم الأوّل من هذا الكتاب . اما القسم الثاني فقد صدر منذ زمن قريب احببنا ان نعرّف بهِ قرّاءنا . وهذا الجزء كلّهُ مخصوص بكتاب كليلة ودمنة جمع فيهِ المؤلف ما امكنهُ من الافادات في هذا الموضوع . فانّهُ وصف كلّ طبعاتهِ المختلفة وما كتبهُ عنهُ العلماء من المقالات والمباحث كما انّهُ عدّد اللغات التي ترجم اليها وطُبع بها كالسريانيّة والروميّة والفارسية والتركية والعبرانية والاسبانية والفرنسية الخ . وقد بيّن في غضون كلامهِ عن الطبعات الفرنسية ما نقله الكاتب الشهير صاحب الامثال لافنتان من كتاب كليلة ودمنة فرضهُ بالشعر الفرنسي . وهو يذكر ايضاً بعكس ذلك نقل المحدثين من العرب لامثال لافنتان . وقد خصّص المعلّم شوفين فصلاً في آخر هذا الجزء روى فيهِ ما صنّف بعض المؤلفين معارضةً لكتاب كليلة ودمنة مثل

سلوان المطاع وفاكهة الخلفاء. وقصة جلماد وشماس الى غير ذلك

فنثني على حضرة المؤلف لنهوضه بهذا العمل الجليل ونتمنّى ان يتحفنا باقرب وقت ببقيّة اجزائه ه. ل.

Amris et Slibæ de Patriarchis Ecclesiæ Orientalis Commentaria, *pars altera*, ed. P. H. Gismondi, Romæ 1897.

اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل لعمرو بن متّى . القسم الثاني

قد سبق لنا وصف هذا الكتاب في بعض اعداد البشير من السنة ١٨٩٦ فبيّنّا ما فيه من الفوائد التاريخيّة الجزيلة التي لخّصها عمرو بن متّى عن كتاب تاريخ ماري بن سليمان المعروف بكتاب المجدل وهذا القسم الثاني انّما هو ترجمة لاتينيّة لكتاب السابق ذكره. وهو نقل محكم اصاب به الناقل دون ان يطمس شيئاً من محاسن اصله . وقد ختمهُ بقائمة مطوّلة وافق فيها بين حساب السنة اليونانية والسنة المسيحية ليسهل بذلك الاطّلاع على زمن عيد الفصح . وهذه القائمة نافعة جدًّا لقراءة كتاب تاريخ عمرو بن متّى لأنّ الكاتب قد بنى حسابهُ على قاعدة تاريخ الاسكندر يبتدئ به من سنة ٣٦٠ يونانية (٤٩ م) الى ايام المؤلف سنة ١٦٢٩ لليونان (١٣٢٩ م)

الكتابة

مقالة لمؤلفها عيسى اسكندر معلوف (٨٤ صفحة)

قد اهدى صاحب هذا البحث كتابهُ لمجلة المشرق وان يكن سبق عهد طبعه منذ ٤ سنوات فذكرناهُ هنا لفائدته. ولا يمكننا تعريف هذا الكتيّب باحسن ممّا زيّن به صاحبهُ صدر تأليفه فقال هو: «بحث تاريخي ادبي يحيط باطراف الموضوع وينشر في طيّه فوائد كثيرة مثل ترقي الخطوط وتاريخها وتراجم اشهر الخطّاط وترقي اللغات واقلامها والادوات الكتابيّة وصناعة الكتابة والانشاء عند الامم المشهورة والكاتب وآدابه والرسم والضبط والترجمة والتعريب والاختصارات والاصطلاحات الكتابية والانتقاد والمكاتب والمطابع والمطالعة ومنتخبات من اهمّ افكار بلغاء الكتبة والمترسلين وتراجم مشاهيرهم الى غير ذلك من

الاصطلاحات اللغوية والاكتشافات العصرية مما يندمج في هذا السلك». (قلنا) ان اتساع المادّة التي تحرّاها الكاتب لم يسمح لهُ بالتنقيب عن امور عديدة حريّة بالذكر. ولهُ في صفحتي ٤٥ و٤٦ في بحثهِ عن تقسيم اللغات مزاعم شتّى لا يرضى بها العلماء المحقّقون فاكتفينا هنا بالتنبيه ل. ش.

اسئلة

١ سألنا احد قرَّائنا الكرام من صيدا ما قولكم في امر الآبار المعروفة بالارتوازية أيمكن حفرها في اي موضع كان وما هي شروطها

٢ وورد علينا سؤال آخر من غيره: من اي جنس كان المجوس الذين سجدوا للربّ

٣. وطلب احد البيروتيين ان نصف لهُ السياتوغراف وقد رأى رجلًا من الاجانب يتكسّب بهذه الآلة

٤ ووردنا منهُ ايضًا: ما السبب الداعي لاتخاذ اوّل كانون الثاني لرأس العام الجديد

٥ ورغب الينا بعضهم ان نذكر لهُ ما صنّفهُ الاوربيّون من الكتب عن شمالي سوريّة

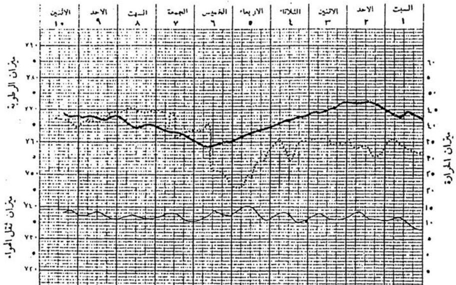
اجوبة

نجيب على السؤال الاوّل انهُ قد اجمع العلماء في الفنون الطبيعية انّ الآبار الارتوازيّة لا تُحفر في كل موضع وانّما يقتضي لحفرها شرطان اوّلهما وجود نبع يعلو سطح الارض علوًّا كافيًا. ثانيهما انّ المياه المتجمعة منهُ في السهل لا تجري في اراضٍ متخلخلة ينفذها الماء فيضيع في ظهرانيها ولكن يسيل بين طبقتين من الموادّ اللّزجة الخزفية او غيرها ممّا يضغطها ويمنع المياه ان تتضعضع فاذا بلغ اليها الحفر تفور عن كثب وتعلو سطح الارض وسنجيب في عدد آخر على السؤالات الباقية

اصلاح غلط

ورد في الصفحة ٦٣ سطر ١١ « ونشا. نشوًّا » والصواب « ونشا. نشوًّا ». وفي الصفحة ٦٤ سطر ٧ « بفنَد » والصواب « بفنِّد »

قائمة للآثار الجوّيّة   من ١ الى ١٠ كانون الثاني ١٨٩٨م



انّ الخطّ الضخم (ـــ) يدلُّ على ميزان ثقل الهواء المعروف بالبارومتر – والخط الرفيع المتتابع (---) على ميزان الحرارة (ثرمومتر) – امَّا الخطّ المنقَّط (....) فهو دليل على ميزان الرطوبة (هغرومتر) – والاعداد الدالَّة على درجات ثقل الهواء تدلُّ ايضاً اذا حُذف منها عدد المئات على درجات الرطوبة